أسرارك

پول تورنييه



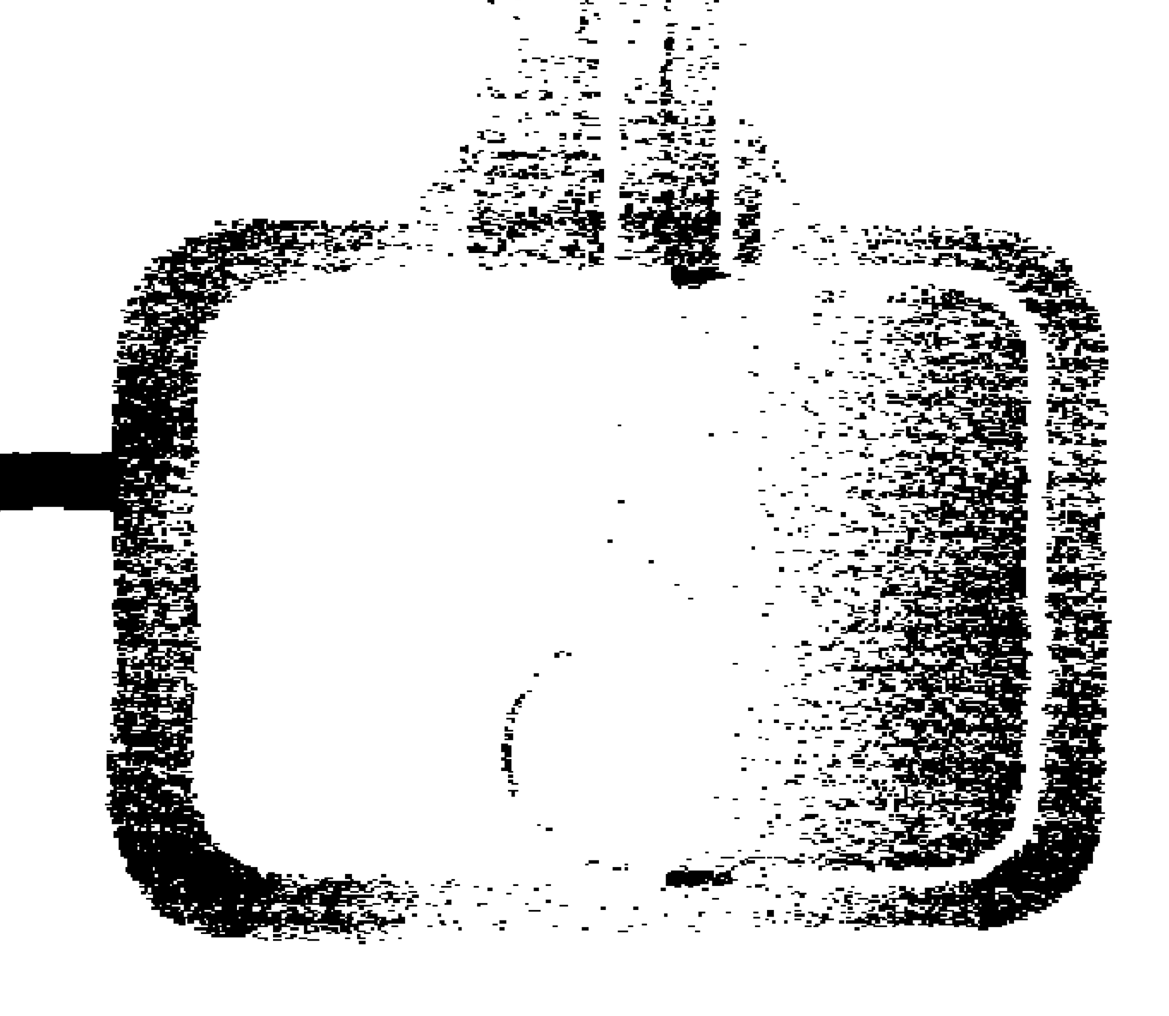
ترجمة عادل فرج

بول تورنييه

أسرارك

ترجمة

عادل فرج عبد المسيح



مركز بيت الحياة
House of Life Center

طبعة أولى
ابريـل - ٢٠٠٨

الكتاب : أسرارك

الناشر : مركز بيت الحياة
تليفاكس : (02) 26377033- 26440220
houselifebooks@gmail.com

حقوق الترجمة : تمت بترخيص خاص (للناشر وحده حق ترجمة كل أعمال المؤلف في مصر و العالم العربي)

المؤلف : بول تورنييه

المترجم : عادل فرج عبد المسيح

تصميم الغلاف : جورج لويز ميخائيل

رقم الإيداع : 2008 / 7020
ISBN : 978-977-6289-00-0

متابعة مطابع : جوزيف يسري كامل

المطبعة : المصرية للطباعة ت :- 26362381 (02)

تورنيه،بول.
أسرارك / بول تورنييه ؛ (ترجمة) عادل فرج - (القاهره) : مركز بيت الحياة ، ٢٠٠٨
٩٨ص ، ٢٠ سم
١ - الأسرار ٢- السرية ٣- الشخصية
أ/ فرج ، عادل (مترجم) ب- العنوان ل ٠٠١,٩٤

تقديرًا و اعتزازًا

إلى

أمي وقد علمتني أن أحب ، واهتم بالصغير و الضعيف و أن أحترم الجميع .

روح ***أبي*** وقد علمني الطريق إلى القوة و العلم و الثقافة.

روح العبقري الفذ أستاذي ***وليم وهبه***.

كيميائى *رأفت زكي* الذي وقف بجانبي قبل طلوع الفجر.

..تمنياتي له بالشفاء.

مهندس *شريف ماهر* أخي الذى لم تلده أمي، ومحبةعملية لا يمكن وصفها.

دكتور *ماجد بطرس* وهو تعويض حقيقي لي بصداقته و أخوّته.

الأستاذ الكبير ماهر الذهبي لإنسانيته و شخصيته و تقديره العظيم.

دكتور *منير حنا* على تقديره الكبير و محبته الصادقة.

دكتور *نجيب خزام* في تشجيعه الإيجابي الواثق.

و إلى كل من رموني بسهامهم الملتهبة القاسية و أداروا ظهورهم لي

و أشاحوا الوجه عني

أتقدم بشكري العميق

حيث دفعوني دفعاً للتقدم و لإنجازٍ أكبر

عادل فرج

المحتويات

الفصل الأول

الحاجة إلى الأسرار

الفصل الأول

الحاجة إلى الأسرار

المرحلة الأولى في تكوين الشخصية المستقلة

عادت فرانسيس الصغيرة من المدرسة بمفردها، رغم أن أمها كانت تصر دائما على أن تصحبها في الذهاب إلى المدرسة، وكذلك عند العودة منها، على الرغم من أن المدرسة لم تكن بعيدة. مجرد شارع واحد يمر عبر التل.

اعتادت فرانسيس ووالدتها الالتزام بالجانب الأيسر من الطريق، حيث المتاجر ذات نوافذ العرض الجملية، إلا أنهما كانتا تسيران أحياناً على الجانب الآخر، والذي كان في معظمه خاليًا من المتاجر.

كبرت فرانسيس بحيث أصبحت أمها تسمح لها بالذهاب إلى المدرسة وحدها. ويوم يسمح لأي طفل بأن يذهب بمفرده إلى المدرسة، تراه يشعر بأنه حقق تقدمًا هامًا وهذا ما نراه من تصرفات فرانسيس عند عودتها بمفردها لأول مرة . إذ كانت تزهو فخرًا وتفيض فرحاً

وهى تعانق أمها فور عودتها. غير أن الأم لم تأخذ الأمور بهذه البساطة وسألتها بانفعال : هل كان كل شئ على ما يرام؟ هل مشيت بمفردك في طريق العودة أم كنت مع بعض صديقاتك ؟ هل التزمت جانب المتاجر أم الجانب الآخر من الطريق؟

شعرت فرانسيس بعدم الارتياح لهذا السيل من الأسئلة، إلا أنها أجابت قائلة : لقد التزمت جانب المتاجر، بالرغم من أنها في حقيقة الأمر كانت قد سلكت الجانب الآخر من الطريق، والواقع أنها كانت مندهشة تماماً، ومضطربة إلى حد ما، لأنها أجابت هكذا. هل كذبت في إجابتها ؟ وما أهمية أن تكون قد سارت على هذا الجانب من الطريق أو ذاك ؟ ولماذا نطقت بهذه الإجابة غير الصحيحة دون أي تفكير.

ولكنها من نلحية أخرى قالت في نفسها : لماذا سألتها أمها هذا السؤال ؟ ولماذا تريد أن تعرف أي جانب من الطريق سلكته ؟ لعل أمها أساساً لا تعلق أهمية على ذلك . ربما لم تكن تبغي من ذلك سوى أن تتكلم وتسأل، بل وتوجه الكثير من الأسئلة تعبيرًاعن اهتمامها بها،وكانت نتيجة ذلك هذا الطوفان من الأسئلة، التي أثارت استياء فرانسيس لأنها اعتبرته تدخلًا في شئونها، ومادامت والدتها رأت أنها قد كبرت إلى الحد الذي تستطيع معه الذهاب إلى المدرسة بمفردها، فما كان ثمة ما يدعوها إلى أن توجه لها كل هذه الأسئلة.



فرانسيس طفلة صريحة وطيبة للغاية، تعود إلى البيت مباشرة ودون إبطاء، ولكنها كانت في حيرة من أمرها هل نزعت إلى عدم ذكر الحقيقة في إجابتها كي يكون لها سر تحتفظ به؟ الواقع أنها لم تكن تبغي أن تخفي عن أمها سرًا. إلا أنها بدأت تشعر بأنه ليس ثمة داعٍ لأن تخبر والدتها بكل كبيرة وصغيرة. إنها كبرت وسُمِح لها بالذهاب إلى المدرسة بمفردها، إذاً فهي في حاجة لأن يكون عندها سر تحتفظ به لنفسها، حتى وإن كان سراً صغيراً للغاية. هذا بالتحديد هو الأمر المهم، وهذا هو ما لم تفهمه والدتها. ولذلك أمطرتها بهذا الوابل من الأسئلة ـ التي لم يكن ثمة داع لها ـ بغية أن تعرف كل شيء.

لا مراء في أن الطفل حتى يوم ميلاده يعد جزءًا من أمه، إلا أنه بعد مولده، ورغم قطع الحبل السُري يظل مدة طويلة مرتبطاً بها تمامًا. إنه لم يعد مستقلاً بعد. ما زال طفلها، ويعتمد عليها كلية، عندما يتكلم تراه في حاجة إلى أن يخبرها بكل شيء، حتى بأدق أسراره وإن كان لا يفعل ذلك مع أي شخص آخر. وقد عبر والدي عن هذا في إحدى قصائده التي كتبها للأطفال، وقل فيها: كان بيتر الصغير يرقد في حضن أمه هادئًا مطمئنًا ولكنه سألها قائلًا: ماما العزيزة ما هو السر؟

أجابته قائلة : هو شيء ما أنت تعرفه ولكنك تخفيه عن كل الناس.

حتى عنك أنت ياأماه؟

كلا ، لا يجب أن يخفي الطفل سرا عن أمه.

حسناً، يجب إذًا أن أخبرك بسري ونظر تجاه أمه : ماما .... إنى أحبك جدًا . فنظرت الأم إليه في حب وحنو ثم قبلته قائلة: لقد أصبح سرك سري أنا أيضاً، ولن أبوح به لأحد أبدًا يا حبيبي.

تمر الأيام، ويكبر الطفل ويذهب إلى المدرسة بمفرده. عليه أن يستقل بأموره شيئًا فشيئًا عن أمه .... وعن أبيه أيضاً لكي تصبح له شخصيته المستقلة، وهنا تصبح أسراره ركائز هذا الاستقلال. ولن يشعر بكيانه ما لم تكن له أسراره الخاصة التي لا يطلع عليها حتى أبواه، ولن يشعر بشخصيته المستقلة عنهما ما لم تكن له أسراره الخاصة التي لا يعرفان عنها شيئاً. هنا فقط يشعر بتميزه عنهما وبأنه شخص له كيانه الخاص.

تصرفت فرانسيس الصغيرة ـ دون أن تدري ـ على هدى ناموس الحياة هذا، وكان ذلك بتلقائية، ودون بحث عن مبررات، حتى إنها دهشت من تصرفها.

بدأت تشعر بالحاجة إلى أن يكون لها سرها . لم تعد تشعر بأنها مجرد ابنة فحسب، بل أحست أن لها شخصيتها المستقلة. إلا أن أمها ما زالت توجه إليها أسئلة كما يحلو لها، دون أن ترى في ذلك تدخلاً في شئونها. لا ترى فيها إلا دلالة على حبها الذي يدعوها للقلق عليها والاهتمام بها. وفجأة نرى فرانسيس وقد استاءت من أحد الأسئلة، واعتبرته تدخلاً في خصوصياتها، ومن ثم فقد وقفت في وجه هذا التدخل، وقاومت ما تملكها من شعور فطري بأن تفضي إلى



أمها بكل شيء .. لا.. فمنذ الآن فصاعداً سوف تهرب من كل هيمنة تفرضها عليها أمها. فهذه هي الوسيلة الوحيدة التي تمكنها من أن تحتفظ لنفسها بأسرارها. يجب عليها أن تعرف متى تحتفظ بأسرارها لنفسها، ومتى يمكنها أن تفصح عنها. إنها بذلك تضع اللبنة الأولى في بنية الاستقلال والفردية.

في كتابه الجيد (اكتشاف النفس) يقتبس جورج جوسدورف **Georges Gusdorf** فقرة هامة من مذكرات إدموند جوس **Edmond Gosse** يتحدث فيها عن واقعة غير ذات أهمية حدثت في أيام طفولته ، وكانت مجرد كذبة مرت دون عقاب ، إلا أن هذه الواقعة جعلته يكتشف أن إيمانه المطلق بقوة والده العظيمة كانت لا تتفق والواقع : (فيقيني بعصمته وبعلمه كل شيء، ذهب الآن وتبخر . كان ثمة سر في هذا العالم ، وكان هذا السر يخصني وحدي، ويخص الشخص الساكن في جسدي. كنت أشعر أننا اثنان، وأنه في مقدورنا أن نتحدث ونتكلم معاً. وفي ظل هذا الشكل من الثنائية، وبشكل فجائي، انتابني إحساس بفرديتي، في تلك اللحظة عينها. كما كنت واثقاً وبنفس القدر، من أنني كنت أشعر براحة عظيمة أن أجد في نفسي شخصاً يستطيع أن يتفهمني).

ليس ثمة شك في أن الطفل ـ كما البالغ أيضاً ـ يتكلم إلى نفسه باستمرار، ويحدث نفسه بكل أسراره، وهو يعرف كل أسراره الخاصة. وهذا ما يعطيه شعوراً بذاتيته مع نفسه، ومع نفسه وحدها. أتخيل أن إدموند جوس كان له بالفعل العديد من الأسرار، قبل ذاك

اليوم الذي حفر في ذاكرته والذي حدثنا عنه هنا. وليس هناك شك في أنه لم يكن قد أدرك هذا بعد. فمعظم ألعاب الأطفال تحتوي على هذه النكهة من السرية والتكتم . فعندما يقلب الطفل كرسيًا رأسًا على عقب، ويزعم أنه سفينة ، فإنه في الواقع يعتبره سفينة، كما أن ميناء مارسيليا أو نيويورك هو ذاك الجانب من الحجرة الذي يتجه إليه ليرسو فيه.

والسعادة في اللعب تعتمد في جانب منها على هذا الخيال فبالنسبة لأي شخص آخر هذا الكرسي ما هو إلا مجرد كرسي، وكذلك الحال بالنسبة لهذا الجانب من الحجرة، في حين أن هذا الكرسي بعينه هو بالنسبة لهذا الطفل سفينة ،وذاك الجانب من الحجرة هو الميناء. هذا هو سره.

وعلى أية حال من المحتمل أنه لم يكن قد تولد فيه بعد الوعى الكامل بفرديته. وإذا كان ذاك الطفل في سن إدموند جوس عندما كان يؤمن بعصمة أبيه من الخطأ ، وعلمه بكل شئ فلربما كان يطلع أباه على أسراره ، وبصورة مشوشة إلى حد ما.أما إذا دعا والده الكرسي (كرسيا) لا سفينة، فهذا لا يعنيه في شيء. إنه لم يفش السر. وحتى إذا انتابه شعور بأن والده على علم بكل أسراره، فإن هذا بالنسبة لطفل في مثل هذا السن ـ يولد فيه شعورًا بالرضا والسرور.

ولكن يا له من تغيير فجائي يحدث بالنسبة للطفل عندما يدرك أنه يعرف شيئاً ما . وأن هذا الشيء لا يعرفه بالطبع أحد سواه ، حتى والده ووالدته. أي أنهما لا يعرفان كل شيء. هذا يولد في الطفل

شعورًا بالقوة. وهو أمر جديد عليه تمامًا. ذلك أنه يدرك أنه يمتلك شيئًا من حقه الخاص لا ينازعه فيه أحد.

وحتى ذلك الحين فإن كل ما حصل عليه كان من والديه ، أو على الأقل بموافقتهما. أما شخصيته الحقيقية فإنما تتحقق عن طريق حصوله على شيء ما دون علمهما.

ومع ذلك يمكن تحقيق ذلك بعمل شئ ما تحت ستار من السرية.

فهناك بعض الألعاب التي هي في واقع الأمر عمل حقيقي : البحث في التاريخ الطبيعي، أو في بناء سفينة حقيقية، أو متابعة اختراع يأمل الطفل أنه سيحقق له الشهرة. ولذا فهو يستمر في عمله في سرية تامة إلا أنه ليس من السهل أن يجد الطفل مكاناً بعيداً عن الأنظار، أو في مأمن من مديرة البيت التي تلقي في صندوق القمامة بكل شئ لا ترى له نفعاً. إلا أنه من حسن الحظ أنه يوجد مكان آخر مثل (صندلة) البيت ، أو عند صديق مخلص يمد له يد العون ، بأن يأخذه إلى الكوخ الكائن بخلف الحديقة. والسرية غالباً ما تتولد نتيجة خوف الطفل من سخرية الكبار منه ومن أعماله. ثم إنه قد يخشى أن يواجهوه بالقول : هذا هو حالك دائماً.... تبدأ عملاً، ولكنك لا تتمه أبدًا. وعندما يصل الطفل إلى سن معينة تراه يحتاج إلى السرية ، وكلما كبر زادت حاجته إلى ذلك. ولذلك فإن آلاف الأشياء التافهة البسيطة التي قام بتجميعها في طفولته ، والتي لا يزال متمسكاً بحبه الشديد لها، تجده ينظر إليها على أنها تمثل عالمه الخاص. وإن كان لا

يبوح بذلك لأحد. إنها أسراره الخاصة، وإنها ما يعتبره ملكه حقاً. بل إن هذا ليس شعوره نحو تلك الدمى الجميلة التي لا يستطيع أن يخرجها من خزائن لعبه إلا بإذن والديه فقط. إن الإحساس بالقوة مرتبط دائماً بالاحتفاظ بالسر.

إن افتتان الأطفال الذي لا حد له بالأسرار إنما يرجع بلا شك إلى هذا السبب.

وعندما يأتي صديق للطفل ويقول له بمكر : إنني أعرف سراً لا تعرفه أنت إلا إني لن أخبرك به ، تراه لا يكف عن محاولته انتزاع هذا السر بكل حيلة ووسيلة . تارة بالتخويف ، وتارة بالوعد.. تارة بالرجاء وتارة بالوعيد. بل إنه قد يلجأ إلى التحايل أو الخديعة.. يجرب وسيلة ، ثم أخرى.

وقد يحاول أن يقدم لصديقه إحدى لعبه مقابل أن يفشي له هذا السر. أما صديقه فيشعر بالفخر لمقاومته كل هذه المحاولات. ثم إنه سيشعر بمتعة تفوقه على صديقه، حتى وإن أخبره بسره. وربما يختلق في حالة الضرورة سرًا. حيث تهور واندفع متفاخراً بأن لديه سرًا. وإن كانت الحقيقة خلاف ذلك. وكل طفل يتفاخر بأن لديه سرًا لا يعرفه أحد سواه.

يالسحر السرية والكتمان . لنر كيف أن الغموض الذي يحيط بالإعداد لأعياد الميلاد ، يثير الأطفال ويزيد من بهجة الاحتفال. فتراهم يقومون سرًا بشراء هدية لوالديهم ، ويبذلون جهداً كبيراً حتى لا يعرف والديهم المفاجأة قبل أوانها.

هكذا الحال أيضاً بالنسبة لتزيين شجرة عيد الميلاد ، فإن هذا يعد سرًّا بين الأب وابنه، الذي يدعوه لمساعدته حتى إنهما يغلقان الباب، ويضع الأب المفتاح في جيبه .. لأنه لا يجب أن ترى ماما أو الأخت الصغيرة شجرة الميلاد قبل الاحتفال . ويظل الأمر سرًّا حتى اللحظة الأخيرة.. حيث يتسلل الأب والابن إلى الحجرة التي بها الشجرة لإضاءة الشموع ، ومع هذا يظل الأمر سرًّا إلى أن يفتحا الباب.

ويدرك الأطفال أن الوالدين أيضاً لهما أسرارهما، وهي الهدايا التي قاما بإعدادها وتعليقها بحرص وعناية، وفي سرية تامة في الليلة السابقة ، بعد أن آوى الأطفال إلى فراشهم.

لكل هذه الممارسات جاذبيتها التي تعتمد على الأسرار، وعلى عدم الصبر، ومحاولة اكتشافها . ذلك أن كل سر يستحث الإنسان لاكتشافه. فالكل يعرف أن هنالك احتفالاً بعيد الميلاد وبشجرة الميلاد. كما أن الكل يعلم بوجود الهدايا . ولكن السرية أمر لا غنى عنه.باتفاق الجميع ، وباللجوء إلى الكثير من الوسائل التي تحول دون اكتشاف السر حتى يزداد الأمر سحراً ، واثارة ، وجاذبية ومتعة.

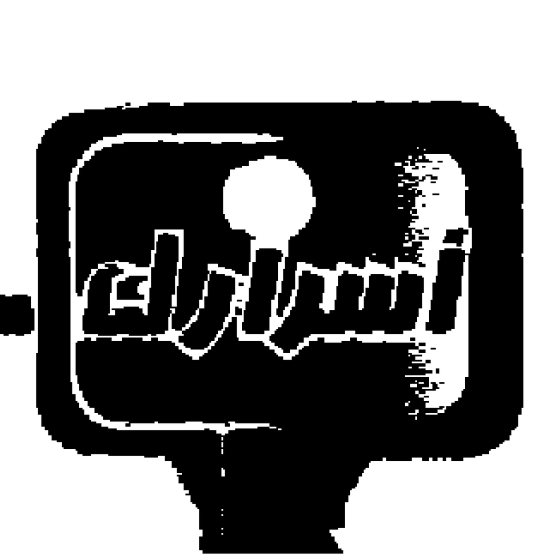
كل طفل يطلع إخوته وأخواته على الهدايا التي أعدها لوالديه سرًّا. وهذا ما يولد صلة عاطفية بين الأطفال الذين يعرفون نفس السر ،ويتفقون على أن يخفوه عن أي شخص آخر.

والمتعة العظيمة التي يجدها الأطفال في السرية والكتمان ترجع إلى أنها تتيح لهم ـ حتى وهم على مائدة الطعام ـ تبادل النظرات

والتلميحات التي لا يعرف الكبار مغزاها ومعناها . وهم يعتبرون ذلك انتقاما من الكبار الذين يستبدون بهم. ألا يدعون أنهم لا يجهلون أمرًا . وأن العصفورة تخبرهم بكل شئ ؟ ألا يتكلمون فيما بينهم لغة غريبة حتى لا يعرف الأطفال عما يتحدثون؟

إلا أن الطفل بدوره يخلع على كل شيء معنىً سرياً ليخلق لنفسه عالماً صغيرًا خاصًا به. لا يستطيع احد أن يسبر غوره. فعندما يقترب القطار بصفيره العالي الصاخب، فإن الطفل يتخذ من ذلك مادة لخياله، ومن ثم يشير بذلك إلى أن التنين الأخضر الضخم يحاول ـ وهو ينفث النار ـ أن يهجم على فريسته، إلا أنه لحسن الحظ تأتي الجنية الجملية الطيبة، فتنقذ الفريسة منه. أليست المعركة بين الجنية والتنين أكثر شاعرية وإثارة من موضوع القطار الذي يعبر الطريق؟

يمكنك حقا أن تختلق عدداً لا نهائيًا من الأسرار. وهذا أمر يتخذه الأطفال وسيلة للانتقام بها من الأمور التي تحدث في واقع حياتهم التي تخضع لكثير من القيود التي يفرضها الآباء مدفوعين بخوفهم عليهم، فضلا عن القيود الأخلاقية . وهذه كلها أمور تعترض أية فكرة تراود خيالهم إذا ما كانت فكرة خطرة أو مبالغاً فيها. فكل طفل يختلق لنفسه قصصًا رائعة. وأسعد طفل هو الذي يطلق لخياله العنان.إلا أن روعة هذه الحكايات إنما تعتمد على سريتها. ذلك أن الطفل هو وحده الذي يعرف سر هذه الحكايات، في حين أن واقع حياته معروف للجميع.



إلا أنه سرعان ما يدرك الأطفال أن للكبار أيضاً أسرارهم. وبخاصة ما يتعلق منها بالناحية العاطفية. وهذه الأسرار تأسر لبه بدرجة كبيرة . ومثل هذه الأمور لا يتحدث عنها الكبار في وجوده، إلا أن صديقاً ما، أو شخصاً أكبر سنًا، أو من خارج العائلة يلمح إليها بطريقة غامضة وإذا سأل الطفل والديه عن معنى ذلك يجيبه بحدة، سنشرح لك ذلك عندما تكبر. ولن يؤدي ذلك إلا إلى زيادة حب الاستطلاع عند الطفل. وعلى ذلك فلسوف يدرك أن عليه أن يحاول بطريقته الخاصة إزالة هذا الغموض.

كيف يأتي الأطفال إلى العالم؟

لقد أخبره والده يوماً، وفي تحرج بأنهم ينمون في بطون أمهاتهم بالقرب من القلب. إلا أن مثل هذه الإجابة المقتضبة تثير في أذهان الأطفال الكثير من الأسئلة بأكثر مما تجاوب عليها.

كيف بدأت هذه العملية؟ وكيف تتم الولادة ؟.... وما معنى كلمة (زنا) أو (شذوذ جنسي) والتي يسمعها بالصدفة؟ وما معنى (الجاذبية الجنسية) التي قرأها على غلاف إحدى المجلات عند بائع الجرائد؟

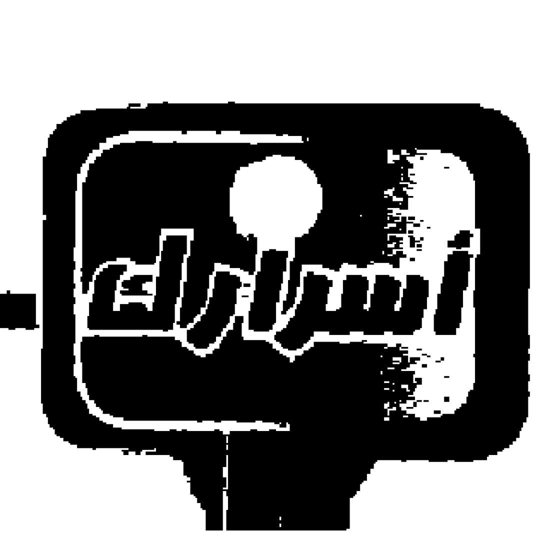
يبحث الطفل في قاموس والده سرًا عن معاني كلمات والده وهذه السرية وخوفه من اكتشاف أمره تزيدان من إثارته. لكنه يجد تعريفات غامضة للغاية، ومن ثم يتأكد أنه لا جدال في إن الكبار يستطيعون أن يحافظوا على أسرارهم .

عندما يصل الطفل إلى سن البلوغ، سواء كان ذكرًا أو أنثى، فإن ما يحدث له يدفعه إلى القلق ويثير لدية سيلًا من التساؤلات فقد يظن أنه مصاب بمرض يخجل من الإفصاح عنه.

ويسبب له موضوع الجنس وكل ما يتعلق به ارتباكًا شديدًا. وإذ يقع فريسة القلق والهواجس، تجده يستغرق في الكتمان كي يخفي أفكاره وأفعاله. ولكن ياله من اضطراب عظيم يعتمل في نفسه نتيجة هذه الأسرار. ويا له من حاجز يصعب تخطيه أقامته هذه الأسرار بينه وبين والديه.

لا جدال في أني أستطيع أن أصف هذه الأمور بكل سهولة. إن خبرات الأطفال تختلف من طفل لآخر. ولكنها دائما مليئة بالمتاعب. فلا أحد يصل إلى سن النضج دون معاناة خفية ، وفحص سري للذات، وندم سري. وحتى أولئك الآباء الناضجون الذين يجنبون أولادهم أية صعوبات لديهم أيضًا مشاكلهم .. مشاكل شخصية وجنسية ومشاكل أخرى عديدة.

والطفل شديد الحساسية بالنسبة للأمور التي تخفي عنه. لماذا يطلب منه والده الذهاب إلى مدارس الأحد بينما هو نفسه لم يذهب أبدًا إلى الكنيسة ؟ لا بد أن ثمة سرًا ... لماذا لا يحب والده رؤية الأستاذ لويس، رغم أنه لطيف جدًا؟ لا بد أن ثمة سرًا. ولماذا كان والداه عابسين عندما أودعاه في تلك الليلة فراشه مبكراً على غير المعتاد؟ لا بد أن وراء ذلك سرًا؟



ولذلك يحاول وهو ممدد بالفراش أن يتبين بعض الأصوات التي يسمعها، ويحاول أن يلتقط كلمة من الأصوات التي تتنامى إلى سمعه. ينهض من الفراش، ويسير على أطراف أصابعه متجهًا صوب الممر، ويفكر في الأمر مليًا. ويطلق العنان لأفكاره... نعم لأنهما يخفيان عنه العديد من الأمور، فمن ثم يتخيل الطفل عدة أسرار. إن كلمة قد يتفهمها خطأ، أو إيماءة، أو صمتًا، أي أمر من هذا القبيل كافٍ لكي يختلق منه قصة.

بالتأكيد لا بد إن أمرًا يشغل بال والديه . هذا هو السبب.... من المرجح أنهما تشاحنا معًا، أو لأنه مقتنع بأنهما ليسا أبويه الحقيقيين، وأنه لقيط، اختطفه غجري وباعه لهما . لا بد أن الأمر كذلك. ولكنه ليست لديه الشجاعة لسؤالهما خوفا من تأكيدهما لحقيقة ما يخشاه.

وقد يكون والده الحقيقي رجلاً آخر، أكثر غنًى وقوةً وذكاءً ولطفًا. وهو الذي أغوى والدته على ارتكاب الشر. ولكنه لابد وأن يعثر عليه يوماً مهما كان الثمن.

وثمة علاقة متبادلة بين السرية والعاطفة. السرية تضفي قيمة على الأمور. إلا أنه من ناحية أخرى فإن أمورًا كثيرة تتخذ شكل السرية، لمجرد أنها نوقشت في إطار من السرية. قالت لي إحدى السيدات : حين كنت صغيرة عرفت أن الجنس والدين مغلق عليهما في خزانة سرية!

ومن المعروف أن الأديان القديمة تتضمن أسرارًا لا يعرفها إلا مؤسسوها . فكل كنيسة لها شعائر تستمد وقارها من سريتها. وكل رمز، وكل تقليد له مغزىً سريًا يضفي عليه طابع القداسة. عندما يدخل شخص كنيسة لم يعتد دخولها ، تجده مرتبكاً. وذلك لأنه لا يعرف أسرارها. لكنه يراقب باهتمام تصرفات الآخرين، كما أنه يخشى أن يأتي تصرفاً أحمق. وتظل الصلوات بالنسبة له مهمة غير واضحة إلى أن يتم شرحها له. كما أن الكتاب المقدس نفسه يظل بالنسبة له غير واضح. ويبدو الأمر لي أنه محنة أو بلية ابتليت بها كنائسنا، لمحاولتها القيام بشرح كل شيء عن أسرار الدين. وربما هذا هو السبب في أن بعضها أحيا موضوع التكلم بألسنة، والذي لعب دورًا عظيمًا في الكنيسة الأولى. هذه الهمهمات المشوشة تظل مبهمة ما لم تفسر وتشرح، وتعبر عما لا يمكن وصفه. الدين يتطلب السرية.

هذا حقيقي ، وليس فقط بالنسبة للكنيسة فحسب ، بل إنه أمر لازم بالنسبة لكل مجتمع منظم ، وكذلك بالنسبة لكل دولة أيضًا.

إن السر المشترك كالملاط يعمل على التماسك الداخلى لأي تكوين اجتماعي. فإذا كنت خارج بلدي، وقابلت أحد مواطني، فلا داعي لأن أبرز له جواز سفري لكي أبرهن له على أنني أنتمي مثله إلى نفس البلدة. ما على إلا أن أذكره ببعض العبارات التي كنا نتبادلها في لعبنا في فترة الطفولة.



الفصل الثاني

احترام الشخصية المستقلة

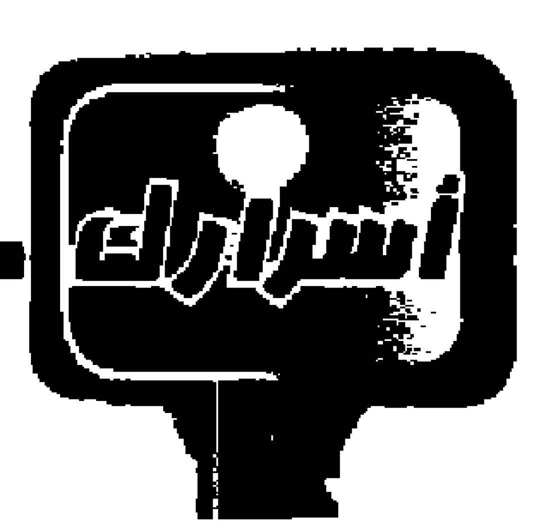
الفصل الثاني

احترام الشخصية المستقلة

لا يقل تأثير سحر السرية والكتمان على الكبار عنه بالنسبة للأطفال. ما الذي يعطي للتراجيديا الكلاسيكية هذه الجاذبية القوية؟ لا شك أن ذلك يرجع إلى أن المشاهد يعرف سراً تجهله الشخصية الرئيسية في الرواية . فلم يكن "أوديب" مثلاً يعرف أنه ينوى قتل أبيه والتزوج بأمه. ونحن نريد أن نصرخ في وجهه بهذا السر. وحتى أدنى مستوى المسرحيات الهزلية (الفودفيل) بشخصياتها المتباينة يرجع تأثيرها إلى الإعداد الجيد للحبكة التي تحتوى على أسرار تعلمها بعض الشخصيات المعينة في الرواية، ولا تعرف عنها شيئاً شخصيات الرواية الأخرى.

وحتى بالنسبة للروايات البوليسية التي استطاعت أن تصرف رجل الأعمال عن أعماله الهامه نجد أن ذلك مرده أنه لا يستطيع أن ينحي الكتاب جانباً قبل أن يعرف سر "حبكة" الرواية. وكل قارىء

للروايات البوليسية يشعر في نفسه كما لو كان هو مفتش البوليس الذي يتلهف لكشف السر. وهذا أيضاً ما نجده في روايات المغامرات والكتب الخاصة بأسرار التاريخ الكبرى. وثمة مجلات أسبوعية تفشي الأسرار الشخصية لنجوم السينما، فضلاً عن صورهم التي تلتقطها بعدسات تلسكوبية. كما أنه توجد أيضاً المجلات الساخرة اللاذعة التي تكشف عن المآخذ الطفيفة للشخصيات السياسية البارزة. وكذلك مجلات للاعترافات السرية، وقصص الحب الحقيقية. وهناك أيضاً هواة الثرثرة التي تتناول أسرار الجيران والأصدقاء ... بالتأكيد كل واحد يعلم عن ذلك، لقد أفلس السيد (س)، ولكنه يبدو واثقاً ثابتاً. أما السيد (ص) فإنه يخون زوجته مع سكرتيرته. تصوروا أن زوجته هي الوحيدة التي لا تعلم بهذا الأمر. يا لها من غبية بلهاء. أما "الثوب الأنيق" الذي تتباهى به السيدة (ك) أؤكد لكن أنها اشترته من أحد محلات "سوق الكانتو". ومن يشعر أنه ليس لديه ما يسهم به في هذه النوعية من الثرثرة تجده وبسهولة يختلق ما يقوله .. إنني بالطبع لا أستطيع أن أخبركم بما سمعته عن السيدة (ن). هناك طرق خاصة تتبعها مطاعم الطبقات الراقية، وتسميها "خصوصياتها" حيث يهمس بها سراً في أذن العميل. هناك أسرار الجميلات ..و أسرار عن كثيرين حققوا النجاح بطرق مختلفة، ولو بالحيل والخديعة حتى لو لم يعملوا. وهناك أسرار خاصة لمن يدعون قدرتهم على العلاج. وأسرار السحر الأسود عند المشعوذين. في العصور القديمة كان أكثر الرجال قوة واحتراماً هو الساحر الذي كان يعرف أسرار الكهانة. أما في عصرنا هذا، فنجد أن العالم هو



الذي ينافس السلحر مكانته. ولكن العالم يستند في ذلك إلى معرفته بأسرار الطبيعة، ومهارته في كشف خباياها شيئاً فشيئاً. وبفضله سيتم الكشف عن أسرار القمر أو المريخ. وإذا كان ثمة قلة من الرجال حازوا إعجابًا بحياتهم المليئة بالمغامرات، فهناك رجال كثيرون كانوا يدَّعون العظمة ويسعون إليها. بيد أنها لم تكن سوى طموحات سرية في صدورهم ... لن يحققوها أبداً، بيد أنها كانت بالرغم من ذلك أعظم أسباب السعادة في حياتهم.

وإذا كانت بعض النساء تجدن السعادة في زواج ناجح، فهناك الكثيرات ممن يتعين عليهن أن يقنعن بحب سري يرعونه في قلوبهن بالرغم من المعاناة الناجمة عن ذلك.

وفضلا عن ذلك كم من معاناة سرية، وأحزان سرية، تعد كنوزاً مخفية على الرغم مما تسببه من الآلام، والتي ربما بسبب سريتها تكون بعيدة عن تقلبات الحياة. وهي على هذا الوضع أفضل من أنواع كثيرة من المتع والملذات المخزية.

حقًا إن السرية مثل خزانة قوية يمكننا أن نحفظ فيها الأشياء الثمينة : بعض الصور التي لفُت بعناية، بعض التذكارات بأحداث جميلة وقعت في الماضي، وبعض المخطوطات التي بدأنا في كتابتها بحماس ولن نتجاسر على طبعها، والتي تظل محفوظة هناك بما تثيره من حنين إلى الماضي. وبعض اللوحات التي لم يكن الرسلم الهاوي بقادر أبداً على الانتهاء من رسمها. وبعض المذكرات الشخصية

اليومية في عدد لا حصر له من الكراسات. فإذا صدقت الأسرار التي كشفت لي، والمستندات التي عهد بها إلى لأحفظها من قبيل إسداء الجميل. فهذه الكلمات السرية تكون مألوفة جداً بأكثر مما تظن ، وغالبا ما تكون لها قيمة كبيرة.

إنني أعرف حقيقة مدى حساسية هذه المسألة. فالعمل الخلاق يكون هشاً أثناء إنتاجه، ويحتاج إلى السرية. لأنه معرض أن يُقضى عليه، ويفقد قوة الدفع والإقناع، إذا ما أفشى سره قبل اكتماله. وهذا ما أراه حقيقة أثناء قيامي بكتابة كتبي والتي لا أجرؤ على قراءتها لزوجتي قبل أن يبلغ العمل مداه.وأجدني مديناً لها بالشكر لتفهمها موقفي هذا ، واحترامها لحساسيتي في هذا الأمر .فالتعليق والنقد أو حتى الثناء يشتت دوافع الإبداع. وان كان من الضروري مواجهة هذه الأمور، عاجلاً أو آجلاً فهي أفضل من البقاء أسير تلك السرية التي فرضت علي في بداية الأمر.

كذلك المحبون تجدهم حذرين جداً في المحافظة على سرية حبهم في البداية إذ ما يزال الحب هشاً. وهذا بالتحديد ما يريد الآباء أن يعرفوا كل شيء عنه، وأنهم بتدخلهم وفضولهم يمكنهم أن يضروا بكل شيء. إلا أنه يوجد أيضاً حب يظل سرًا إلى الأبد بسبب الافتقار إلى الشجاعة للإفصاح عنه بوضوح في الوقت المناسب. نعم إن بعض السرية في النطاق الصحيح، يجب أن تلازم كل شيء له قيمة، وكل خبرة ثرية، حتى يمكنها أن تنضج وتأتي بثمار. هذه الملحوظة تعود بنا إلى ابنتنا الصغيرة فرانسيس، والتي كانت قد

بدأت تحتاج إلى السرية في علاقتها بوالدتها حتى تصبح لها شخصيتها المميزة. والأمر يختلف إذا أدركت والدتها أنها لم تخبرها بالحقيقة تماما فوبختها بعنف، وعاملتها على أنها كاذبة، وأخبرتها أن الكذب أسوأ الذنوب، وبخاصة في علاقة الأم وابنتها التي يجب أن تخبرها بكل شيء. وبخاصة وأن العلاقة بين الأم وابنتها ينبغي أن تقوم على المصارحة بكل شيء.

يغضب معظم الآباء إذا لاحظوا أن أولادهم يخفون عنهم أمراً، غير مدركين مدى أهمية ذلك بالنسبة للطفل حتى يصبح ذا شخصية متميزة. ولهذا فقد كتبت هذا الكتاب على أمل أن أوجه نظرهم إلى ذلك. إنهم يفهمون جيداً أن أطفالهم بدأوا يفلتون منهم، وأن غضبهم أمر طبيعي تجاه الرابطة التي انكسرت في علاقتهم بأطفالهم. كانوا يحبون أن يطيلوا فترة المشاركة الصريحة الرائعة، التي كانت تربطهم - دون تحفظات - بأطفالهم في بداية حياتهم. وهناك من يغفلون مثل تلك المواقف. حيث جاءت إحدى الأمهات ومعها ابنتها التي في سن المراهقة، وقالت لي : ابنتي هي أفضل صديقة لي. ثم أردفت: إننا تعودنا أن تخبر كل منا الأخرى بكل شيء، وبكل ما في هذه الكلمة من معنى.

طلبت من الأم أن تتركنا وحدنا، وهنا ظلت الابنة تتكلم معي مدة ساعة ، عن كل الأمور التي لم تخبر بها والدتها. وعلاوة على ذلك أخبرتني بآخر قصة ملفقة ذكرتها لأمها. ثم إنني تبينت أن الأم خلقت لنفسها كثيرًا من الأوهام التي صدقتها، ومن بينها ما ذكرته

من أن ابنتها هي أفضل صديقة لها، وأنها فخورة للغاية بذلك، وأنها في حاجة ماسة إلى بقاء مثل هذه العلاقة بغير انقطاع، وأنها لم تعد تدرك أنها في الواقع لا تخبر ابنتها إلا بما تحب أن تخبرها به فحسب. ثم أنه كان سيصبح من غير المناسب لو أنها أسرت لابنتها بالكثير من الأسرار كما تفعل أمهات عديدات.

يتحول بعض الوالدين إلى بوليس سري، فيخرجون إلى الشارع، ويختبئون في أحد المداخل ليراقبوا أولادهـم، ليروا أي أصدقاء يرافقونهم عند عودتهم من المدرسة، وماذا يفعلون في الطريق. إلا أنه عندما يكبر الأولاد وتزداد المراقبة، فإن هذا يؤدى إلى عواقب وخيمة.

جاءت لمقابلتي إحدى الأمهات وقالت لي إن اهتمامها بابنها أدى إلى خلاف معه. وكانت تريد أن ترسله لمقابلتي. ثم أخبرتنى أنها منعته من مقابلة فتاة لما لها من سلوك وسمعة يغضبانها. والآن تستطيع أن تثبت أنهما يتراسلان سرًا. كل يرسل للآخر خطابات غرامية. وأنهما يتقابلان .. كما تبرهن خطابات الفتاة. سألتها : وكيف عرفت كل ذلك ؟ فأجابت : معي مفتاح آخر لدرج مكتبه. وإني أقرأ خطاباته أثناء وجوده في المدرسة.

كان يجب أن أفعل هذا.. أليس كذلك؟ إن هذا هو واجبي أن أراقب ابني.



أخذتها الدهشة إذ لم أوافقها على ذلك، وسألتها : كيف تتوقعين أن يكون ابنك أميناً معك، بينما لم تكوني أنت أمينة معه؟

وحتى لا يصل الأمر إلى هذا الحد، فإن كثيرين من الآباء يحثون أولادهم على أن يستمروا في إخبارهم بكل شيء، كما كانوا يفعلون وهم صغار.

قالت أم لابنتها: لقد قابلت صديقتي (ب)، ويبدو أنك قابلت ابنتها بالأمس وخرجتما معاً. لكنك لم تخبريني بذلك، ولحسن الحظ فإن صديقتك قالت لأمها كل شيء.

هناك طريقان من المحتمل أن يسلكهما الأطفال كرد فعل لممارسة الآباء لمثل هذه الضغوط. فإما أن يبتعد الأبناء أكثر فأكثر عن الآباء، وإما أن يخفوا عنهم المزيد والمزيد من الأمور. بل قد يعيش الأبناء حياتهم بالكامل دون مشاركة أو معرفة الآباء، فيعتزلون عنهم أو يتجنبونهم ، وقد يكرهونهم . أما الآباء فإنهم سيقومون بتوبيخ أبنائهم بطريقة قاسية، وبمرور الوقت يتطور الأمر إلى صراع صريح، دون أن يدرك الآباء أنهم هم السبب في هذه المحنة. ومن ناحية أخرى ربما يكون رد الفعل ضعيفاً، فيستسلم الأبناء لاعتقادهم أنه يتعين عليهم أن يخبروا والديهم دائماً بكل شيء، بحيث لا يرى الابن سوى الأصدقاء الذين يفضلهم والداه فقط . وأن يعمل ما يرونه هم فحسب. مثل هذا الابن عرضة لأن يصبح مريضاً . وسيبقى ـ على أية حال ـ محتفظاً بالصفات الطفولية ، مثل : الجبن ـ التردد حتى

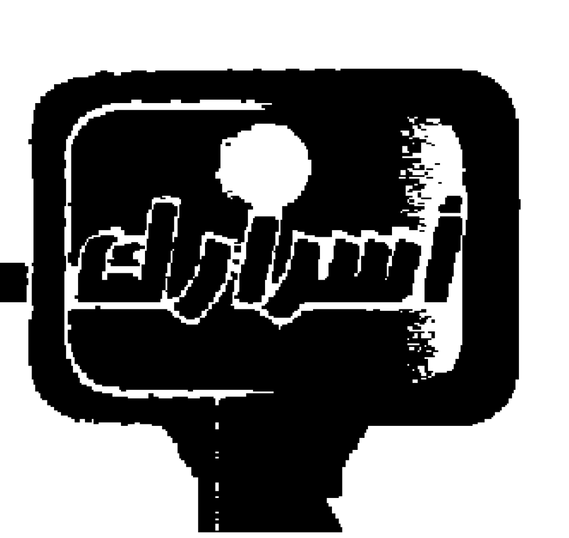
عندما يكبر ، مما يثير حزن والديه ، وإلقائهما باللائمة عليه، دون أن يدركا أنهما هما المسئولين عن ذلك.

جاءت إلى عيادتي عدة مرات،أم مع ابنها الذي يتراوح عمره بين الأربعين والخمسين . كانت تحرص على أن تتحدث نيابة عنه، وتشرح مشكلته. ولقد اندهشت عندما قلت لها: إن ابنك كبير بدرجة تمكنه أن يشرح مشكلته بنفسه.ولكن للأسف فقد تبين أنه في غيبة والدته لم يستطيع أن يعبر عن ذاته ذلك لأنه فقد القدرة على التفكير لنفسه. وقد ترى أحيانا ابنة (٤٠ أو٥٠ سنة من العمر) لا تجرؤ أن تتسلم خطاباً إلا وبعد أن تقرأه والدتها. وأخرى لا تنفق من مرتبها الإ بعد أن تستأذنها.

من أطروحة علمية بكلية الطب بجامعة ونتبلير، كتبت د.سوزان ميجويل هذه العبارة : **أن يكون أمرٌ خاصٌ بك أو سر، فهذا يعنى أنك تتمتع بشخصية مستقلة.**

إن الآباء الذين يحرمون أولادهم الكبار من أن يعيشوا حياتهم الخاصة، إنما يمنعونهم من أن يصبحوا مستقلين. وحق السرية والكتمان هو امتياز أساسي للاستقلالية. وكل إنسان بحاجة إلى السرية لكي يكوّن شخصيته المتميزة ، ولا يصبح مجرد عضو في أسرته.

إحدى بلايا هذه الأيام أن الأماكن المتاحة للأسر تأخذ في التقلص



باضطراد. والأحداث السياسية والعسكرية تقود الناس وتدفعهم أمامها وتكدسهم كلاجئين. ومشروعات البناء لا تلحق بالأعداد المتزايدة للسكان. كما أن الدافع للربح هو المسئول عن بناء شقق أصغر. وفي مثل هذه الظروف لم يعد لأحد مكاناً خاصاً به. وهذا ينطبق على الآباء والإخوة والأخوات .. الكل يعيشون مكدسين، دون أن يكون لأحد منهم ركنٌ خاصٌ به، تتوافر فيه السرية. **وكل إنسان يحتاج إلى السرية لكي يستجمع أفكاره، وعلى الآخرين أن يحترموا سريته. إنك باحترامك سرية شخص ، أيا كان ، حتى وان كان ابنك فهذا يعنى أنك تحترم استقلاليته. أما أن تتطفل أو تتدخل في حياته الخاصة، وتعتدي على سريته، فأنت بذلك تعتدي على هذه الاستقلالية.**

دأب والدان على أن يسألا ابنهما أي سؤال يعن لهما ، ولم ينتبها أبدًا إلى أنهما باستمرارهما في ذلك إنما يعتديان على استقلاليته. على أية حال سيأتي بغتة يوم فيه يجب أن يتوقفا عن سؤاله أسئلة كانت حتى هذه اللحظة بسيطة غير مؤذية مثل: متى عدت إلى المنزل بالأمس؟ إنني لم أسمعك حين عدت .. ماذا ستفعل في عطلة الأسبوع القادمة؟ هل كان هناك ضيوف عند صديقك (م) بالأمس؟ وهل كان هناك (ن) وأخته أيضا؟ ألم تشعر بالبرد صباح اليوم؟ فقد خرجت بدون معطفك... إن الألوان المائية التي رأيتها في حجرتك جميلة جداً، من أعطاها لك؟ هل أنت مستعد للامتحان؟

هذه الأسئلة وغيرها مماثلة كان الأولاد يرحبون بها منذ فترة

قصيرة، كتعبير عن المحبة والاهتمام. وفجأة يستاء الابن من مثل هذه الأسئلة التي يعتبرها تطفلاً وتدخلاً في شئونه الخاصة. لذا فإنه لم يعد يجيب عليها إلا بهز كتفيه ودون مبالاة ، بما يعني : إن هذا ليس من شأنك . مما يؤلم والدته حقاً، إذ تعتقد أن الولد أصبح حساساً جداً، ولم يعد في إمكانها أن توجه له أي سؤال . على كل، ينبغي أن أعرف ما إذا كان يجب أن أجهز له ملابس التزلج على الجليد ليوم الأحد .إن الحياة أصبحت مستحيلة معه. فهو يعتبر البيت مجرد فندق، يأتي متأخرًا لتناول الطعام ،ويأكل بسرعة دون أن يقول شيئاً، ثم يغادر البيت بعد ذلك. إنني أشعر بالرثاء والأسف لزوجته عندما يتزوج.

هذه المشاكل بالتحديد سوف تزداد بعد زواجه. ومثل هذه الأم تبذل كل جهدها لتنسجم مع كنتها، فهي ترحب بها كما لو كانت ابنتها، وتسألها بكثير من الحب والود لتعرف كل شيء عن طفولتها وآرائها ،وكيف تقابلت مع ابنها. وإذا نجحت في أن تنال ثقتها فلسوف يكون ذلك مدعاة لسرورها. وهي تحب أن تساعدها كى تنجح في زواجها، لأنها تعرف ابنها جيداً، أكثر من تلك الفتاة . إن له رغباته العابرة. وتفتح دولاب الملابس، وتقدم لها نصيحة طيبة، وبلباقة بالغة تقول لها: من الأفضل أن لا تضعي قمصانه تحت الملاءات والأشياء الأخرى، لأنه إذا أراد أن يأخذ قميصًا فسوف يقلبها ويبعثرها كلها. لماذا تبدو الزوجة الشابة كئيبة في أغلب الأحيان؟ إن الانسجام معها أمر ليس بالهين، كان من المفروض أن تكون ممتنة من أجل كل هذا الحب والرعاية التي تحيطها بها، إلا أنه عليها أن تشعر بأنها عضو



في الأسرة . ولا يمكن أن نظل غرباء إحدانا عن الأخرى. ولكن هذه الأيام لا تظن أنها تتدخل أو تتطفل فهي تعتقد أن مثل هذه الأمور ليست أسراراً على أية حال. ترجع هذه المشكلة إلى أن الزوجين الشابين لم يقدرا أن يجدا شقة فكان عليهما أن يبدآ حياتهما الزوجية في بيت والديه. إذاً فليست لديهما أسرارهما. فالوالدان يعرفان كل شئ يفعلانه، إلى أين يذهبان، متى يعودان. وإذا ما كانا سيلازمان البيت صباح الأحد أم أنهما سيذهبان إلى الكنيسة. وها أخوات جون اللاتي يرحبن بحرارة بزوجة أخيهن. كم هو رائع أن تكون لنا عائلة أكبر الآن. إنها ستكون أختًا لهن بالفعل. فقد اعتدن أن يكن معاً دائماً في الأسرة. ولم تكن هناك أية أسرار بينهن وأخيهن. وهن بالتأكيد لا يحببن أن يهدم زواجه هذه العلاقة النموذجية. ولا بد أن تشعر زوجة أخيهن أنها في بيتها تماماً عندما تأتي لزيارتهن. كذلك الحال بالنسبة لهن أيضاً سيشعرن بأنهن في بيتهن عندما يذهبن إلى بيت أخيهن. فلا أسرار بين المحبين.

إن هذه أمور عادية للغاية، ولكنها للأسف تثير المشاكل. لأنه في الأغلب الأعم نجد أن محبة الوالدين المفرطة وحماستهم الزائدة ـ لما يعتبرونه نافعًا ومفيدًا للزوجين الشابين ـ هي نفسها التي تفسد علاقة الود بينهما. فإذا لم ينفصل الابن عن أبويه، أو إذا كان رد فعله ضعيفاً إزاء تدخلهما في شئونه على النحو الذي رأيناه ،وإذا لم يقف إلى جانب زوجته لاعتقاده أنها تفرط في الحساسية والشك إذ تسئ تقدير موقف والديه، فلسوف ينجم عن هذا ما يهدد العلاقة

الزوجية بين هذين الشابين. لقد بذل كل شخص قصارى جهده لكي تكون العلاقة بين الجميع على ما يرام. ولكن أحدا لا يعلم لماذا يزداد الأمر سوءاً. لا بد أن هناك سوء فهم.وهذا ناجم عن تجاهل نقطة لم ينتبه أحد إلى أهميتها ،ألا وهي: السرية .فالسرية أمر هام، أولا : لتكوين الشخصية الفردية، وثانيا : لتكوين العلاقة الثنائية. ومما يعطى السرية أهميتها العظمى ،هو أن الفردية تمثل الدعامة أو الأساس، وكل انتهاك للسرية ما هو إلا انتهاك للفردية. وقد لمسنا ذلك في نظم الحكم الدكتاتورية التى تستند إلى ازدراء الفرد. ولعلك تذكر على سبيل المثال، القضية المأساوية للسجين السياسي (ليند سبرج) حين كان سجينا لدى الجستابو. فقد ناقش مع نفسه مليًا أن يقوم بالانتحار مخافة أن ينتزع الجستابو منه سره عن طريق أساليب التعذيب الرهيبة التى كانوا يتبعونها. وملذا كان سره ؟ إنه قائمة بأسماء أعضاء شبكة المقاومة الشعبية ضد الاحتلال. لقد استطاع أن يحتفظ بزجاجة صغيرة بها جرعة من السيانيد السام. ولكن هل كان له الحق في الانتحار مخافة أن يفشي سر زملائه ؟ أخيرًا رأى أن إيمانه المسيحي لا يسمح له بقتل نفسه. لذا أخذ على عاتقه طريق المخاطرة الصعب. ومات في معسكر الاعتقال بأورانينبرج دون أن يفشي سره.

ربما تظن أن مثل هذه الحالات المتطرفة لا علاقة لها بقصص العائلة التي ذكرتها. ولكنى لا أظن ذلك. لأن احترام الذات مطلب مطلق. إما أن نقدره بشدة وإلا نكون قد بدأنا ننزلق إلى طريق

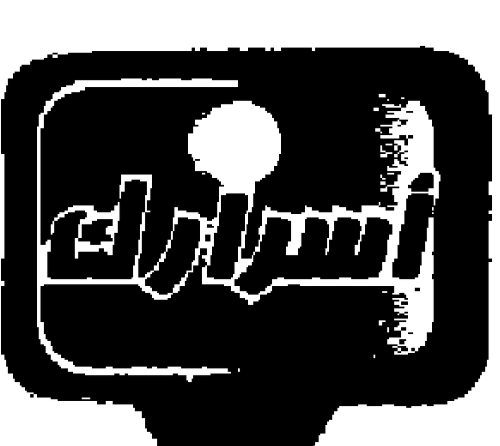


الطغيان المحفوف بالمخاطر. وليس في هذا الطريق وسط. إن جرثومة الاستبداد تكمن ساكنة بين كل قوات الشرطة في العالم . فلا يخلو مكان من سوء المعاملة. وكل شخص يشعر بهذا. وكل شخص يشعر بديهيا بما في السرية من قدسية. ومسئولية حفظ السر تشمل : أسرار الدولة ـ أسرار الجيش ـ أسرار الصناعة ـ أسرار الطب ـ أسرار القضاء ـ أسرار رجال الأعمال ... وما إلى ذلك . وكل شخص يدرك مدى الخزي، الذي يلحق بمن يتجسس على غيره عن طريق الخداع، أو إفشاء السر بدافع الأنانية أو الجبن. إلا أن جرثومة الاستبدادية ترقد ساكنة في داخلنا جميعاً. وإذا لم تنمو وتكبر فان ذلك يرجع إلى إننا لسنا أقوياء إلى الحد الذي يجعلنا حكاماً، نستطيع أن نفلت من العقاب. كثيرون ينتقدون عظماء هذا العالم، دون أن يدركوا أنهم هم أنفسهم استبداديون في عائلاتهم، ويستبدون بمساعديهم، ومرؤوسيهم، وكل المحيطين بهم وذلك في حدود السلطة المتاحة لهم. وإنه لمن الخطر على الإنسان أن يكون قويًا وهذا في الواقع ما شعر به الفيلسوف "عمانوئيل مونييه" **Emmanuel Mounier** عندما قاد فريق البحث العظيم في موضوع "الأدوية ، القوة الرابعة" في مجلته **Esprit**. إن العلوم والتكنولوجيا الحديثة خلعت على الطبيب قوة مخيفة، يخشاها المريض كما يخشاها الطبيب نفسه أيضاً. وقد أجري مونييه أبحاثه بصفة خاصة على عمليات جراحة المخ، والتحليل النفسي، والتحليل بالمخدرات. ولكن إلى أي مدى يكون لك الحق في استخدام أساليب يمكن بواسطتها استخلاص الأسرار من الإنسان؟ لقد أجبت على هذا السؤال بأني أنا نفسي ـ أحياناً ـ

أستخدم المخدرات في التحليل والمشكلة لا تحلها قاعدة عامة بل تعتمد أساسًا على الروح التي تحرك الطبيب. وعلى احترامه العميق لفردية الإنسان وإستقلاليته وعلى موافقة المريض النابعة من إرادته الحرة ورضائه التام.

وفي هذا المجال أيضا ليس ثمة حلول وسط، فكل الأدوية بصرف النظر عن نوعية التكنولوجيا المستخدمة، تمثل قوة تمت ممارستها على الإنسان. والموضوع هو معرفة ما إذا كنا نمارسها بأمانة مطلقة مراعين احترام استقلالية الإنسان وحريته.

والخوف من علماء النفس، وهذا ما يشعر به العديدون من الناس، هو في الحقيقة خوف من إنسان يظنون أنه يقدر أن يستخلص أهم أسرارهم دون علمهم. في أول مرة تناولت فيها ـ أنا وزوجتي ـ العشاء مع اثنين من أصدقائي الأطباء النفسانيين أخبرتني زوجتي ونحن ننصرف أنها كانت تشعر بالإعياء التام، وكانت تشعر أن نظراتهما كانت تتغلغل إلى روحها لتلاحظا سرًا كل ما يدور فيها، وأنه لا شيء خفي عنهما. ومنذ ذلك الوقت وهي تشعر بذلك الإحساس تجاههما. **صرح لي كثيرون إن خوفهم من إجراء العملية الجراحية، لا يرجع إلى خوفهم من العملية الجراحية في ذاتها، وإنما خوفهم من التخدير، وأنهم في حالة علم وعيهم قد يفشون بعض أسرارهم الخاصة. إن احترامنا لاستقلالية المرضى هو احترام قاطع لأسرارهم، وأسرار حياتهم الخاصة،** واحترام حقهم في السرية. إلا إذا قالوا لنا إنهم يكتمون شيئاً ما في قلوبهم. وليست لديهم



الشجاعة. لأن يخبرونا به. هذا هو ثمن ثقة المريض في طبيبه المعالج، وهذه الثقة ضرورية لممارسة الطب.

أعتقد أن ثقة الكثيرين فيَّ ترجع إلى أنني لست فضوليًا. والفضوليون دائما يتعطشون لإفشاء الأسرار،غير أنهم لا يحصلون إلا على القليل منها. لأن الناس يحمون أنفسهم من الفضوليين ،تمامًا كما تفر الفريسة عندما تدرك أن الصياد يطاردها. ومن ناحية أخرى، كلما ازدادت الأسرار التي يخبرك بها الآخرون قل فضولك .ولكي يشعر الإنسان بأنه يلقى الاحترام كشخصية مستقلة ، لا بد أن يتيقن من أن له مطلق الحرية في أن يفصح عما يريد من أسرار وأن يحتفظ لنفسه منها بما يريد .

الفصل الثالث

إعلان الأسرار

الفصل الثالث

إعلان الأسرار

المرحلة الثانية في تكوين الشخصية المستقلة

يعود بنا هذا الفكر مرة أخرى إلى فرانسيس الصغيرة. فعندما سألتها والدتها عن الجانب الذي سلكته، هل هو يمين أو يسار الطريق. ردت في عجالة لتحمي نفسها من هذا التحقيق ولم تذكر الحقيقة. ولكنها ربما تقول الحقيقة لصديقتها الصغيرة ... حيث سارت على الجانب الخالي من المتاجر. وذلك لأن صديقتها لا توجه لها أسئلة عديدة، ولأنها تجد سعادة عندما تثبت صداقتها لزميلتها بهذه الثقة. وهذا التباين يحدث طبيعياً. ويتزايد تدريجياً من ناحية التركيز على أحداث أكثر أهمية من موضوع أي جانب من الطريق سلكته. وبمرور الوقت ستخفي عن أمها أشياء ستخبر بها صديقتها، لكي توطد الصداقة بينهما.

وعلى هذا فإنه إذا كان الاحتفاظ بالسر هو الخطوة الأولى على طريق تكوين الشخصية المستقلة فإن إعلان السر لشخص موثوق فيه يُختار بحرية، يشكل الخطوة الثانية.

ثم إن الاحتفاظ بالسر هو التأكيد المبكرعلى الحرية، وإخبار شخص ما تختاره هو التأكيد التالي على هذه الحرية، بل هو أمر له أهميته الكبرى. **فالشخص الذي لا يستطيع الاحتفاظ بسر، ليس شخصاً حراً. إلا أن الذي لا يستطيع الإعلان عن سره أبداً ليس حراً أيضاً.**

عرضنا في بداية هذه الدراسة تلك الرغبة لدى الطفل في أن يكون له سره الذي لا يعلنه لكل أحد. سر شخصي .. كخطوة على طريق تكوين ذاتيته، وليس اكتمال تفتحه. وأن يحتفظ بسره الشخصي، **إن أحداً لا يمكن أن تكون له ذاتيته قبل أن يصبح مستقلاً أولاً. ولن يمكنه ذلك دون التحرر من الآخرين، ومن سيطرة الأبوين، ودون أن يكون واعيا بشخصيته المستقلة، والتي لها الحق في السرية والكتمان. أما بدون ذلك فلن يكون سوى فرد لا شخصية له. ثم أنه بالانفتاح على الآخرين، وبالكشف عن أسراره (بمحض حريته هذه المرة) فإنه يصبح مرتبطاً بصفة شخصية بأولئك الذين كشف لهم أسراره . وبهذا تتوافر له مقومات الشخصية.**

وهذا أمر نلمسه حين يفتح الطفل قلبه لأمه أو أبيه. **ومن السهل أن تدرك أن حرية الشخص هي معيار نضجه. فطالما بقي الطفل**



تحت سيطرة والديه، يظل غير قادر على إخفاء أي أمر عنهما، بل ويظل معتمداً عليهما. وحين يحرر نفسه من خلال السرية والكتمان يصبح حينئذ قادراً على تكوين علاقة حميمة كإنسان حتى مع والديه، فإنه لم يعد بعد مجرد طفل إذا ما أخبرهما بأسراره، ذلك أنه حر في الاحتفاظ بها إذا ما أراد ذلك. إن فرانسيس لم تختر والدتها، بل اختارت صديقتها الصغيرة لتخبرها بما لم تخبر به أمها. **فالاختيار بصفة خاصة هو امتياز الشخصية المستقلة**، ولها أن تختار والدتها كصديقة حميمة لها، وهذا تأكيد على شخصيتها المستقلة، لأنها اختارتها بحرية.

منذ أيام قليلة مضت زرت أحفادي في مسكنهم الجديد بالريف. وبعد أن أمضيت معهم بعضاً من الوقت، أمسكوا بيدي واقتادوني - في هدوء - إلى أكمة مظلمة، حيث صنعوا ما يشبه الكوخ . هذا مثال عن عالم الأسرار الصغير الذي يحتاج الطفل أن يخلقه بتصوره وخياله. وهناك نزع الأطفال فرع إحدى الأشجار كان بمثابة الباب ودعوني للدخول. أخذوني إلى داخل سرهم، وبهذا بينوا لي محبتهم. **والطفل على أية حال لابد أن يكوّن صداقات بعيدًا عن والديه، حتى يحرر نفسه منهما** .وهذا ما يثير والديه ، لأنه لم يختر الصديق الذي يروقهما، ولأنه يخبر صديقه بما لم يخبرهما به، وهنا تظهر غيرتهما. ليس لأن ابنهما بدأ يخفي عنهما بعض الأسرار فحسب، وإنما لأنه يخبر صديقه بها. فيشعران إن ابنهما بدأ يبتعد وأنه أصبح مستقلًا عنهما. وغيرتهما الأبوية، فيما يتعلق بأصدقاء ابنهما ممكن أن تؤدي

إلى أبعاد مأساوية، حتى لو لم يعبرا عن ذلك صراحة، أو عندما لا يكونان على وعي بذلك. وغالباً ما تكون تلك هي القضية. ومن ثم يبدآن العمل على الإقلال من شأن صديق ابنهما الذي استطاع أن يستميله إليه. ومن ثم يقولان له : لا نريدك أن ترى هذا الصديق كثيرًا. يجب ألا تقصر صداقتك عليه وحده، يبدو إنكما لن تنسجما معاً. وهكذا ترى أن الأبوين يناديان بالحرية. رغم أنهما لاما ابنهما لسعيه في طلب الحرية منهما. وفضلاً عن ذلك فإن ردود أفعالهما تنفر الطفل أيضا منهما، وتجعله بعد ذلك يتوجه إلى أصدقائه، إذا ما احتاج إلى مساعدة.

في الحقيقة لا بد من ذكر أنه من حسن حظ بعض الأطفال أن لهم آباء ممتازين، ليس لديهم غيرة، ولم يجعلوا أبناءهم يثورون عليهم.

وهكذا فإن تطور الشخصية يأتي نتيجة فعل مزدوج، والاختيار بين أمرين يكمل أحدهما الآخر. الرفض ثم الاستسلام. فثمة حكمة في ضبط اللسان عن الكلام، وهناك حكمة في التكلم. وعلى أية حال، المسألة ليست كلمات فحسب، بل إيماءات وحركات.

كانت امرأة تجلس في مكتبي، وكانت تضع على عينيها نظارة شمس سوداء، على الرغم من أني كنت حريصاً على أن يكون الضوء إلى خلفها، وعلى ذلك كانت تراني بأفضل مما أراها. وبعد حوالي ١٥ دقيقة من المناقشة نزعت النظارة وهي تقول بصوت خفيض: تسمح لي؟ يا للعجب هل أسمح لها! .. ولكني أعرف أيضا أن معنى تلك



البادرة هو: أنني الآن لا أشعر بالخوف منك، وليست عندي رغبة في الإخفاء . وبالإضافة إلى ذلك ،فإن هذه البادرة ذات المغزى تنبع من حقيقة إنه حتى ذلك الوقت كانت تلك المرأة تواظب على وضع نظارة الشمس على عينيها. فالناس الذين قلما يفتحون قلوبهم لنا بحرية تامة قلما يفصحون عن أسرارهم.

وهذا العمل المزدوج (التقوقع ثم الانبساط) يتكرر خلال حياة الشخص، وفي كل موقف أو مناسبة. **فلكي تتبسط مع شخص ما يتعين أولاً أن تمتلك ذاتك.** ولن يكون من المجدي أن تمتلك ذاتك ما لم يكن ذلك بغرض أن تقدمها . إنها مباراة دقيقة. إلا أنها حافلة بظلال كثيرة من المعاني، والتي تشير في كل لحظه إلى درجة العلاقة المتبادلة بين المتحدثين. فإذا تكلم أحد مع آخر بمودة أكثر مما يظهر الآخر فثمة شعور بعدم الارتياح لأنهما لا يتعاملان بنفس الكيفية ... لا يتعاملان بنفس المستوى وإنما بعطاء زائد من جانب وإقلال من الآخر.

وأولئك الذين يفتحون قلوبهم بسهولة لكل شخص، ولا يعرفون كيف يحتفظون لأنفسهم بأي سر. فإن كلامهم لا يؤخذ مأخذ الجد. وكذلك الحال بالنسبة لمن لا يعبرون عن أنفسهم أبدا. وإنما يقصرون أحاديثهم على أفكار غير شخصية، فإنهم بذلك يثيرون ضجر الآخرين ومللهم. وأولئك الذين يكثرون من الأسئلة يبدون مزعجين، أما الذين لا يوجهون أسئلة فيبدون متباعدين.

ومن الطبيعي أن كل شخص لديه ما يميزه. فثمة من هم أكثر

دفئا من الآخرين ، وهناك من هم ثرثارون، وهناك الذين لا يكفون عن الحديث عن أسرار لا حصر لها. سبق وأن عرفها الجميع، كذلك هناك من هم قليلو الكلام. والبعض يهمس عند التكلم، وآخرون يزعجون غيرهم بما يثيرون من ضوضاء، إلى حد أنهم حتى إذا كانوا في مكان عام تراهم يفصحون عن أسرارهم بصوت مرتفع بدرجة يسمعها الجميع. يلاحظ أن الهولنديين لا يضعون ستائر على نوافذهم في المساء لأنهم يودون أن يشاهد المارة أثاثهم الفاخر الموجود داخل بيوتهم، كما يشاهدون حياتهم العائلية الهادئة. بينما يحيط الفرنسيون بيوتهم بأسوار عالية، ويسدلون الستائر حتى في النهار. ولكن ما وصفته ـ قبلاً ـ أكثر عمقاً من تلك المظاهر غير الهامة. فالهولنديون كالفرنسيين، غير مستعدين لأن يفصحوا للآخرين عما في قلوبهم. يتساوى في ذلك قليلو الكلام والثرثارون. **والإنسان الذي يتكلم بصراحة وإخلاص يستحق منا التقدير.** والشخص الذي تراه في العادة متحفظاً، يربك سامعيه، إذا ما نطق بكلمة هي من صميم خصوصياته. وإذا ما حدث ذلك تُعد هذه بالنسبة له تجربة مفيدة للغاية، وليست مجرد مناسبة أفشيت فيها سلسلة من الأسرار، نشرها شخص آخر دون مبالاة. والصمت يمكن أن يتناغم بحسب الموقف. فإما أن يكون نوعاً من الرفض المتعالي في موقف، وإما يعد موهبة حقيقية في الإنسان في موقف آخر.

لقد كبرت فرانسيس الصغيرة، وأصبحت راشدة وناضجة، **وعليها أن تتعلم رويدًا رويدًا هذه اللعبة الهامة والدقيقة، لعبة**



الكتمان والإفصاح، الصمت والتكلم، وإلى أي مدى يمكنها أن تفصح لهذا أو ذلك بالأسرار. ومتى يتعين عليها أن تتوقف عن الكلام . إنه فن كسائر الفنون، ولا يمكن تعلمه إلا عن طريق التجارب العديدة،والمحاولات المستمرة. وهذا كما يقول الفلاسفة الأقدمون يعتمد على الحصافة التي يعتبرونها فضيلة ثمينة. وكل شيء له وقته المناسب الذي يمكن أن يفصح عن أسراره فيه. فثمة ما يجب أن يقال فوراً، وثمة ما يحسن تأجيله، وثمة ما يفضل التريث قبل الإفصاح عنه. وعليك أن تعطي فرصة للآخرين للتكلم، فالصمت يعطيك تقديراً حتى لا يحرجك أحد .

فالحيوان وحده هو الذي يعمل على مستوى رد الفعل. ولا يستطيع أن يتوقف إلا إذا حصل على احتياجه. أما الإنسان فإن القدرة على الاختبار تعد أمراً أساسياً وجوهرياً بالنسبة له بل وأيضاً لحظة التجاوب لا رد الفعل فحسب.

لذلك فإنه في كل لحظة في علاقتنا بالآخرين، وحتى دون أن ندرك، هناك معيار صغير للأسرار الشخصية التي يمكن أن نصرح بها، أو التي يجب أن نحتفظ بها لأنفسنا. وبهذا يمكن قياس نضج وحرية الشخصية. فالأطفال الذين لا يعرفون كيف يحتفظون بأسرارهم لأنفسهم ، ويثرثرون بأسرارهم ، وكذلك الرجال والنساء ممن لا يعرفون متى ينبغي عليهم أن لا يبوحوا بأسرارهم، أو لا يقدون على ذلك، هؤلاء ليست لديهم القدرة على إنشاء علاقة شخصية مع آخرين. وأمثال هؤلاء لا يقدرون على مقاومة السعادة الرخيصة

التي يشعرون بها نتيجة الإفصاح بكل أنواع الأسرار والتي كانوا يشعرون بالفخر لمعرفتهم لها. وبالنظر إلى أنهم يفتقرون إلى الحرية تراهم يذعنون للآخرين. **أما الأشخاص المنغلقون على أنفسهم ، فإنهم عاجزون عن التعبير عن أي أمر شخصي، ذلك لأنه حكم عليهم بالسجن في عزلتهم العقلية. فكل إنسان يحتاج أن يعبر عن** نفسه، وإلا فما سبب تلاقي الرجال في المقاهي والسيدات حول كوب من الشاي ؟ وما سبب لقاء الشباب في الأندية؟ السبب هو أن كلًا منهم يود أن يفصح عما لديه من أسرار. يحتاج البعض أن يتعلموا كيف يتكلمون ويعبرون عن آرائهم بحرية أكثر، وآخرون يعوزهم أكثر أن يتعلموا كيف يصمتون . والأمران كلاهما صعب.

وينبغي ألا نعتقد أن كل شيء هو ضرب من العرف في هذه اللعبة الاجتماعية، أو أنه يتم تقديره بالسجية. وما يمكن أن يؤخذ في الاعتبار هو بالتحديد نوع من الانحراف البسيط عن العرف، يختلف قليلا عن السلوك الطبيعي للإنسان.

وعلى سبيل المثال، عندما يتحدث إليك شخص كصديق، وبطريقه لم تعهدها منه من قبل، ويخبرك بأمور لم يجرؤ أن يخبر بها أي إنسان من قبل، لأنه عادة كان يحتفظ بهذه الأمور لنفسه. فإن هذه الواقعة يكون لها تأثير كبير عليك. سوف تشعر بان هذه دلالة على ثقة فائقة. وعلى غير توقع يصبح هذا الشخص صديقاً حميماً لك. فقد اختارك بنفسه صديقاً له. ولتكون محل ثقته. من تلك اللحظة تتوطد عرى الروابط بينكما. وهذا ما يسميه الفلاسفة "العلاقة المتبادلة بين الأشخاص" Interpersonal.

وفضلاً عن ذلك لم يقتصر الأمر على أن شيئاً هاماً حدث بينك وبينه، بل إن هذا حدث أيضا في داخله وداخلك. فالإنسان شخصاً "ذاتاً" من خلال ما يلاقيه من مثل هذه الصداقة والثقة. **فما من أحد يكتشف ذاته بمعزل عن الآخرين. بالرجوع إلى ذاته، وتحليل نفسه. فبالانفتاح على الآخرين يعرف المرء ذاته. فأن تخبر آخر بسر يعنى أنك تنفتح على غيرك. وهذه أغلي تقدمة** . التقدمة ذات الأثر البالغ. وقد أصبح هذا الصديق نفسه شخصاً "ذاتاً" من خلال تغلبه على خجله ومقاومته الطبيعية لفتح قلبه.. وتغلبه على جبنه وتكلفه، ذلك لأنه فتح قلبه. وبدأ يختبر شعوراً فائقاً بالتحرر. ليتسع لأبعاد وجوده. إنه بذلك يكسر حواجز كانت تسجنه. وإذ أصبح صريحاً واضحاً معك، فقد أصبح صريحاً واضحاً مع نفسه. وفي نفس الوقت جعل منك شخصاً، لأنه اختارك لتكون موضع ثقته، ولأنه وثق في أن يخبرك بسره، مما يثير فيك أيضاً مبادلته بأسرارك ليحررك أنت أيضاً من المقاومة الداخلية فيك. وفي المقابل يمكنك في هذه الحالة غير العادية من الثقة أن تخبره ببعض أسرارك التي لم تكن تظن أنك تجرؤ على إعلانها.

تلك هي الصداقة الحقة حيث يتبادل الصديقان الأسرار والتي من خلالها يشعر كلاهما أنهما ينموان، وأنهما أصبحا أكثر نضجاً وعمقاً. وبالنسبة للكثيرين تظل مثل هذه التجربة فريدة بالنسبة لسن المراهقة، حيث يتم الاكتشاف المشبوب بالعاطفة لقيمة الصداقة. تلك المشاركة الوطيدة التي تأسست على تبادل الأسرار.

لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لي. فلم تكن لي مثل هذه المشاركة فأنا من النوع الكتوم. ولم تكن لي مثل هذه التجربة حتى بعد أن تجاوزت تلك السن بوقت طويل. لأنه في وجود شخص كتوم ، يظل الشخص الآخر كتوماً كذلك. ولا يبدأ في الكلام إلا عندما يجد أن لدى الآخر استعدادًا للتكلم والانفتاح. إلا أنه كان من شأن هذا التأخير تأثير كبير على نفسي. كانت أبواب سجني مفتوحة، وقد تحول مجرى حياتي بالكلية إلى الحد الذي جلعني مفضلاً وجعل الكثيرين يسرون إلي بأسرارهم.

ولكن هذا الحدس، وهذه الملكة التي تجعل الناس يخمنون لمن يفصحون له عما في قلوبهم، إنما تتطلب في الحقيقة قدراً من النضج. كما قال القديس (فرانسيس دى سالز) **على المرء أن يختار من يعترف إليه من بين عشرة آلاف شخص.** وبالتأكيد فإنه كان يقصد الاعتراف كأحد أسرار الكنيسة، والحقيقة أن هذا ينطبق على حالة الاعتراف العادي والاعتراف المتبادل الذي يوطد الصداقات و يعمقها. ولكن معظم الخبرات السيئة التي رويت لي فيما يتعلق بهذا الأمر إنما تعود إلى سن المراهقة .ففي ذلك الوقت الذي يتميز بالعاطفة المشبوبة قد يفضي فتى وفتاة لصديق بسر دقيق، لا يقدر أن يحتفظ به. لأن إفشاء السر يعد انتهاكاً وخيانة للفتى والفتاة. فالعامل الهام جدًا في تشكيل الشخصية المستقلة يصبح هو نفسه معوقاً ومعرقلًا لنمو الشخص لو صادف فشلًا نتيجة حماقة أحدهم وكل من يجتاز تجربة كهذه، ويشارك آخر أسراره بصدق وإخلاص، ثم يلاقي الخيانة ، فإنه يفقد الثقة في الآخرين ولوقت طويل في حياته.

عندما تتقبل سرًا يعني دائمًا تحمل مسئولية كبرى. والاعتراف الذي يمكن أن يعد علامة هامة على تحرر الشخص، لو تأكد من حفظ سره، يمكن من ناحية أخرى أن يكون مدمراً لو أفشى السر. أنني هنا لا أتحدث عن الأسرار المخجلة فحسب، بل إن هذا ينسحب أيضاً على الأسرار الهامة التي لها صفة الخصوصية والتي لا يجرؤ المرء عادة أن يعلنها لسنوات طوال.

إنني أرتاب كثيرًا في مفهوم تلك السرية التي تتطلب الإفصاح عن أسرار الآخرين. فكثيرا ما يبدى أحدهم دهشته لأنني لم أخبر زوجتي بما أخبرني هو به، رغم أنها مسائل عادية، كان يمكن أن يتحدث بشأنها دون ارتياب (دعه يخبرها بنفسه) وقد تكون النتيجة أنه يتشكك في علاقتنا كرجل وزوجته. ليتك لا تكشف إلا أسرارك أنت، لا أسرار الآخرين.

ومن ناحية أخرى فإني كثيرًا ما استشهد في كتبي ـ بتصريح من زوجتي ـ بأحداث من حياتنا تمسني بقدر ما تمسها. وقد تمسها أكثر. وهي تتقبل الأمر كنوع من المشاركة في عملنا. والأمر لا يتعلق بالعمل الأدبى. بل بالعمل الإنسانى الذي كرسنا حياتنا معًا من أجله. إننا في علاقتنا بالآخرين.. زوجتي مع من تقابلهم، وأنا مع من يستشيرونني، والقراء الذين أكتب لهم .. ننشد أن نتجاوز حد الأفكار النظرية، ونتكلم بالحري من منظور شخصي . **فقد تعلمنا أن أكثر ما يعاون الآخرين على تفهم حقائق الحياة هو أن يستمعوا إلى من سبقوهم بخبراتهم الواقعية. فالشخص ليس وجودًا مجردًا.** وهذه

هي حياتنا الشخصية كما نحياها. ومع ذلك فإن زوجتي لا تخفي عني حقيقة أنه يؤلمها أن تجد أن بعض الأسرار الخاصة بنا تنشر في كتاب. وهي لا تهتم كثيرًا إذا قرأها يابانيون أو استراليون. ولكن الأمر يختلف بالنسبة لمن يعرفوننا شخصيًا من الأقرباء والأصدقاء.

من الواضح أن كل ذلك جد دقيق. وأن ما تخشاه من إفشاء السر هو أن يصل إلى آذان شخص بعينه. ولهذا السبب فإن من يقطن جنيف يفضل أن يذهب لاستشارة طبيب نفساني في زيورخ.وأن من يقطن زيورخ يذهب إلى جنيف. فإن ولهذا السبب قد يبدو لنا أمرًا لا ضرر منه على الإطلاق بالنسبة للشخص الذي أفشينا أسراره. فليس هناك أسرار كبيرة أو صغيرة. وما يعطي للأسرار القيمة العاطفية هو أنها تخصنا وتؤثر فينا.

ومع ذلك فهناك حقًا بعض الأسرار ثقيلة ومرهقة بصفة خاصة وهناك ما هو أكثر من ذلك من الأسرار العديدة التي يصعب تصديقها. فهناك من الأسرار ما يلوث الجو العائلي بقية الحياة فمثلا هناك طفل أنجبته أمه قبل الزواج .. تذهب لتراه سراً مرة في السنة . أو أن الابن الأصغر هو أخ غير شقيق فمتى يجب أن تخبره بأن الرجل الذي يظنه أباه هو في حقيقة الأمر ليس كذلك ؟ وما أصعب ذلك . ولكن الأصعب هو أن الأب نفسه لا يعرف .. أو يتظاهر بأنه لا يعرف ، لأن زوجته لم تجرؤ أن تعترف له بهذا الأمر. وربما هذا الطفل لن يعرف هذا الأمر أبدًا. وسيظل مخدوعًا في حقيقة ذاته. وهو ما يعد اعتداءً على شخصه.



كثيرون من الأزواج ليست لديهم الشجاعة الكافية ليخبروا الطفل بأنهم قد تبنوه وهو لا يزال صغيرًا. ولكنه سيكتشف هذه الحقيقة عندما يخبره بذلك أحد زملائه بالمدرسة. عندما يواجهه بها بقصد إهانته أو عندما يخبره بها شخص مجهول، أو موظف الجوازات حيث يذهب ليتسلم جواز سفره.

هناك العديد من الأسرار التي يتم كتمانها في قلق .. مثل : الجندي الذي كان يتعاون مع الأعداء، وآخر وقد عاش حياة الاستهتار وذاك الذي أشهر إفلاسه، والأخ الذي حكم عليه في جريمة ... أو شاذ جنسيًا .. أو طرد من البيت وهناك خوف من أن يعود ثانية.

وهناك أيضًا أسرار تخص الحياة العائلية في محيط الأسرة. فهذا الشخص المبجل، الذي ينال إعجاب الجميع، وهو عضو بارز في المجلس الاستشاري لأبروشيته، وفي عدة لجان أخرى اجتماعية وروحية، إنما هو يتعارك مه زوجته في و حشية، والعجيب أنه مع زوجته وأولاده يخشون أن تصل إلى مسامع الجيران الضجة التي يحدثونها معاً، رغم أنه قد يضرب زوجته بوحشية وقسوة أثناء عراكه معها. إنه لا يفهم نفسه، كما أنه يشعر بالقلق خشية أن يعرف زملاؤه في اللجان هذا الأمر.

والآن دعنا ننتقل من الأسرار المخزية للآخرين، إلى تلك التي تخص كل واحد منا في سلوكه السري. هناك أخطاء يتم ارتكابها في لحظه ما... يفقد فيها الإنسان رشده. بل هناك أيضاً ما لا يقدر

الإنسان أبداً أن يحرر نفسه منه، على الرغم من إصراره على ذلك بإخلاص. فهناك زجاجة النبيذ أو الويسكي. وقد أخفاها بحذر في المكتبة .. فهو لا يمكنه أن يبتعد طويلًا عنها . كما أن هناك بعض الصور الخليعة. وقد أغلق الدرج عليها. وهناك امرأة غير شريفة.. يواظب الأب المحترم على زيارتها بانتظام، وفي سرية بالغة. كما أنه قد يحتفظ في البنك ببعض الأوراق المالية التي لم تخضع للضرائب. وقد تكون له بعض الهوايات الصبيانية التي تثير سخرية من يعرفونه في حياته العامة. والتي يبدو وكأنه فيها دائما "على خشبة المسرح" كما يقول سارتر. كما أن هناك بعض الضعفات الغريبة، والتي يقرر الرجل المتسلط أن يحتفظ بها، حتى في حياته العامة. وقد تكون هناك بعض الضعفات في حياته الخاصة .. في علاقته بزوجته والتي قد تستغلها لمصلحتها.

هناك أيضا الإنفاق الأحمق الذي لا يقدر أحد على مقاومته والذي لا يقدر هو بدوره أن يعترف به لزوجته ، رغم أنه هو الذي يطالبها دائما بالاقتصاد والتوفير. فثمة آلاف من الأفعال المشينة والجديرة بالازدراء، والتي يدهشنا أن نرتكبها.



الفصل الرابع

العلاج النفسي و الأسرار

الفصل الرابع

العلاج النفسي والأسرار

ثمة فرق ضئيل للغاية بين الإفصاح عن السر والاعتراف . فكلاهما اعتراف بالأسرار. والسر يشكل عبئاً، مما يجعل الاعتراف به يحرر النفس من عبئها بصورة مذهلة.

وستعرف مدى صدق هذا القول إذا عرفت أنه في عالمنا المعاصر وفي دول معينة على الأقل أخذ الطبيب النفساني بالنسبة لبعض الناس مكان المرشدين الدينيين. و لا شك أن الكنائس تلام على ذلك إلى حد ما. فقد ظل رجال الدين لقرون طويلة يحتكرون كل ما يتعلق بأمور النفس. وإن قاموا بذلك فبارتجال. ويظن رجال الدين أنهم يقومون بخدمتهم على أكمل وجه بالإنصات والاستماع .. لإنسان لمدة ساعة. أو ساعتين فإذا عاد إليهم ذلك الرجل مرة أخرى ـ كما هو مألوف ـ فإنهم يقولون لأنفسهم إنه رجل مريض .. يجعل من الحبة قبة، ولا يعيرونه مسامعهم ، ولا يعودون ينتبهون لحديثه إلا

على نحو شكلي ... وبدون أن يخامرهم أي شعور بأهمية المشاكل الإنسانية التي يمر بها المريض والتي يفصح لهم عنها. وعلى حين فجأة ظهر فرويد **Freud** بحبه الشديد للنفوس البشرية فكان يجلس ويستمع إليها بصبر غير محدود لمئات بل آلاف الساعات : وقد جنى فرويد وتلاميذه من جراء ذلك حصادًا مذهلاً من المعلومات الجديدة ... معلومات عن المرضى، وفهماً لمن كرسوا أنفسهم لخدمتهم ... إنها معلومات حقيقية أكثر عمقاً عن الإنسان بعامة. وقد حدث انقلاب تام في مفهومنا عنه، وكذا عن علم الإنسانية. ومن ثم علمنا فرويد أن كثيرين من الناس بحاجة لأن يحرروا أنفسهم ، لكي يكتشفوا ذواتهم، وقد كشف لنا عن الأثر العلاجي الفعال لتلك الحقيقة البسيطة عن التكلم بكل صراحة بدون تحفظ أو خجل، وأن الناس الأصحاء إنما يحتاجون إلى مثل هذا العلاج كما يحتاجه المرضى.وقد وضع بعض الاصطلاحات العلمية ليصف بها ما حدث مثل : الإفراغ (أو التنفيس) ـ التحول العاطفي. ويمكننا أن نعبر عن تلك الظواهر بلغة بسيطة. أن نخبر بأسرارنا معناه أن نختبر التواصل الإنسانى الذي نحن جميعاً بحاجة إليه.

حقًا إن ذلك هو أساس العلاج النفسي لكل مدارس علم النفس حتى إن يانج ، ومايدر، وأدلر، ورانك **Jung, Maeder, Adler and Rank** وهم من تلاميذ فرويد الذين اختلفوا معه في الرأي، أعلنوا مبايعتهم لأستاذهم فرويد الذي مهد الطريق لاتجاه طبي جديد، هو التحليل النفسي، والذي أصبح في النهاية مصدراً لحركة شاملة من الفكر



الثري. كما أن الكنائس ذاتها والتي كانت تحارب هذا الفكر فيما مضى، أصبحت تجني منافعه، حتى إن رجال الدين عدلوا عن رأيهم المعادي له.

ثم إن علاج النفس المتدينة بالطريقة القديمة والتي استمرت لوقت طويل، فيما يتعلق بالنظام الذي يتبعه الكاهن قد تبدلت وتغيرت، وأعيدت إلى مكانها الصحيح.

إننا نجد في حالة العلاج النفسي كل العناصر التي تعرضنا لها وكشفنا عنها. فالمريض يحرر نفسه بنفسه، عندما يذهب إلى الطبيب ليخبره بأسراره تلك التي لم يخبر بها والديه. وهو غالباً ما يشعر بالتردد في البداية . وهو يتشكك في أن يفصح بأسرار لا تخصه وحده، وإنما تخص آخرين أيضاً : والديه.. إخوته وأخواته.. معلميه وأصدقاءه. **فهو يخشى أن يصدر أحكامًا غير عادلة عنهم، إذا نسب إليهم سبب ما عانى وقاسى منه.. ذلك لأنه ما يزال محكوماً بقاعدة صبيانية: إن التعرض للوالدين حرام.**

وأكثر من ذلك من خلال عدة جلسات علاجية نفسية، نجد ذلك الإيقاع المتعاقب بين الانسحاب والاستسلام والتي ناقشناها من قبل. **لكل منا إحساس داخلي بأن النجاح إنما يعتمد أساساً على المصارحة التامة والصدق في الإعلان الكامل لكل أسراره الخاصة. ولكن ما من أحد يصيب النجاح من المرة الأولى، لكنك تقترب منه شيئاً فشيئاً.**

كما أن ثمة شيئًا من المقاومة، والانسحاب، والمعوقات. ثم يعقبها شعور عميق بالتخلص من الهموم والأعباء ومن شعور معادل بالتحرر. مثل ذلك الصديق الذي اختاره الطفل الذي تحدثنا عنه سابقاً. فالطبيب هو الشخص موضع الثقة الذي نختاره بإرادتنا من حيث أنه لن يفشى أي سر. لذلك يمكنك أن تصرح له بأي سر لم تخبر به أحداً من قبل. إلا أنه يختلف قليلا عن الصديق، حتى وإن كان الطبيب والمريض في نفس العمر. فوظيفة الطبيب تجعل منه شيخًا. فهو يلعب دور الأب، أو دور الأخ الأكبر على الأقل، ويقوم المريض بمد جسور العلاقة مع الطبيب بإعترافه له بأسراره. حتى وإن كان الطبيب يجلس منصتا وباعتناء لما يقوله المريض بحسب طريقة فرويد.

إنه لمن المعروف جيداً ذلك التحفظ الشديد الذي أوصى به فرويد كل طبيب يقوم بالعلاج الكلاسيكي في التحليل النفسي. فعلى الطبيب ألا يكف عن الإجابة عن أية أسئلة يسألها المريض الذي يشعر بالكدرفحسب، بل عليه أن يتوارى جالساً خلف الأريكة التي يتمدد عليها المريض حتى لا يلاحظ التعبيرات التي تبدو على وجهه. حينئذ لا تكون هناك أية انفعالات متبادلة بينهما، كما يحدث مثلاً عادة بين اثنين من الأصدقاء يتبادلان الأسرار بالمفهوم الذي سبق أن قمت بشرحه. وهناك حالات تستدعي بالضرورة تطبيق طريقة فرويد. وحتى في هذه الحالة . فإن الانفعالات المتبادلة تكون أكثر مما توقعنا أولاً. فبعد دراسة التحول العاطفي ؛ أي مشاعر المريض تجاه



الطبيب المعالج، اضطر أتباع مدرسة فرويد إلى اختبار التحول المضاد بمعنى اختبار المشاعر التي تولدت في قلب الطبيب ذاته، وليست المسألة إلى أي مدى حاول الطبيب أن يكون متحفظًا وهادئًا. فقد اشترك فعلًا في ذلك الأمر. ومن ثم يحدث شيء ما بين الطبيب والمريض، وهو أمر متبادل، حيث يؤدي كلاهما دوره من خلال الآخر. وسوف نرى أن هذه العلاقة المتبادلة تزداد أكثر خلال تطور العلاج النفسي.

إن يانج ومايدر يجعلان الطبيب يواجه المريض وجهًا لوجه، بدلًا من أن يتوارى خلفه في صمت حسب أسلوب فرويد. بهذا نتجاوز المونولوج (حديث من جانب واحد) الذي يدعو إليه فرويد. فهنا تنويه إلى حوار. ويكون "مايدر"Maeder هو أول من يتكلم عن "الاتصال الشخصي" وهو تعبير يحمل معنى "تفاعل أعمق" إلا أن الطبيب ما يزال متحفظًا فهو نادرًا ما يتدخل، إلا عند السؤال. وأخيرًا فإن "فرانكل" يريد قيام حوار كامل بين الطبيب والمريض. وعلى الطبيب أن يحافظ على استمرارية ذلك الحوار، وأن يشارك المريض كل تساؤلاته التي تشغله ولا يتجنبها. كما أن عليه أن يلتزم بقانون الحياد الأخلاقي، وأن يتأكد من عدم تسرب رأيه الشخصي إلى الموضوع.

ليس العلاج الطبي للفرد هو أسلوب العلاج النفسي. وهذا ما يميز موقف أي طبيب، كالجراح ـ على سبيل المثال ـ في علاقته بمريضه، رجل لرجل أو شخص لشخص. أما عندما يمارس طبيب

العلاج النفسي فإن هذا يقوده إلى أن يحرر نفسه في الوقت المناسب ـ كما برهن على ذلك مايدر ثم بلاتنر Plattner . يحرر نفسه من التحفظات السابقة التي أشار إليها فرانكل. وأن يقبل علاقة تامة التبادل. حينئذ يمكن للطبيب أن يشارك في هذا الحوار برأيه الشخصي، وبحياته الروحية وبحكمه على القيم الشخصية، وبخبراته التي حصل عليها، وكذا بأسراره الخاصة. وكان الخوف من أن يقود التبادل الكامل إلى الإضرار بالكرازة، كما بالاهتداء إلى الإيمان . ولكن كل ذلك يتوقف على الروح التي يتحلى بها الطبيب، وعلى احترامه الحقيقي لاستقلالية المريض. ولكن بالتجربة أقرر أن الوضع سيكون على العكس من ذلك . فإن هذا الموقف يركز على ما بين الطبيب والمريض من ارتباط شخصي وثيق بينما يقود المريض في ذلك الوقت إلى الاستقلال الروحي والأخلاقي بصورة كبيرة. ويبدو أن ثمة قليلًا من المصاعب الجديرة بالملاحظة تعزى إلى التحول في العلاقة المتبادلة والمفتوحة بالمقارنة بالطريقة المغلقة في العلاقة المتبادلة للتحليل النفسي الكلاسيكي. ومع ذلك فإنه من الضروري على أية حال أن يكون هناك القدر المناسب لذلك. ولقد أكدت على ذلك من قبل عند الحديث عن العلاقة بين صديق وصديق . وقد أشار "مايدر" ومن بعده بلينت إلى أنه في مثل هذا السعي فإن الأداة العلاجية هو الطبيب كشخص .كما يشير أيضا إلى أن هذا العلاج بواسطة شخص يلعب دوره لا في العلاج النفسي فحسب، بل في العلاج الطبي ككل. وبالنسبة إلى كل المرضى، فسواء كان الطبيب ممارسًا عامًا أو جراحًا أو متخصصًا باطنة، فإن كلًا منهم له



أسراره التي تثقل كاهله. فكل مريض يريد أن يشكو لهم ، ولكن هذا ليس متاحًا لهم طالما أن الطبيب لا يقدر أن يقدم الوقت الكافي، ولا الجو المناسب مادام يسأل ويتفحص مرضاه في موضوعية تامة. فكل مريض يود لو استطاع أن يقيم علاقة شخصية مع طبيبه، حيث يمكنه أن يفضي إليه بهمومه في حرية. وهذا من شأنه ، في الوقت نفسه، أن يساهم في شفائه وتحسين صحته، ولكن "بلينت"**Balint** أشار ساخرًا إلى أنه لم يتعلم في كليات الطب إلى أي مدى يمكنهم استخدام الأدوية حسب تقديراتهم الشخصية.

وسوف نعود مرة أخرى إلى مشكلة القدر المناسب التي سبق أن تكلمنا بشأنها. فإلى أي مدى علينا أن نتكلم أو نصمت، وإلى أي درجة يمكن أن نستخدم الإيماءة والوضع الجسماني والصمت؟

يرى "بلينت" أن كل طبيب يمارس "وظيفة الرسول" حتى يمكن القول إن له تأثيرًا روحيًا وأخلاقيًا على مرضاه . فهو ينقل إليهم رأيه وفلسفته في الحياة ، ومعتقداته ، سواء أدرك هذا أو لم يدركه ، سواء قصد ذلك أو لم يقصده . إنه لأمر أساسي أن يشارك مرضاه بأسراره إلى الحد الذي فيه يقدم نفسه. فالعلاقة المتبادلة ليست مسألة كلمات، وإنما يعبر عنها بالأحرى بالوضع الجسماني ، والعاطفة ، والنظرة حتى بالصمت.

وباختبار تلك الحالة من العلاج النفسي، فإنها تقودنا إلى تحليل أفضل وأعمق لمشاكل السرية والكتمان. ففي عيادات الأطباء

النفسانيين يوجد مرضى يعلنون أسرارهم لأطبائهم الذين ينصتون إليهم في انتباه واحترام ، ثمة رجلان يبحثان عن أسرارهما الخاصة، والتي توجد في أغوار النفس السحيقة جدًا، والتي ليس لديهم عنها معرفة واعية. ولكن لكل منهما هاجسًا بأن لهذه الأسرار دورًا حاسمًا في حياته. وهى إلى حد ما السر الذي يراوغه في حياته.

لقد ظل الإنسان مبهمًا بالنسبة لنفسه. لكنه اليوم يدرك تلك المأساة بصورة أكبر مما كانت عليه في الماضي. فقد أظهرت اكتشافات التحليل النفسي للإنسان أن في أعماق نفسه الخزانة السرية التي يوجد بها المفتاح الذي فقده. فما الذي يوجد في هذه الخزانة من اللاشعور ؟ فما هي المشاعر والرغبات والعواطف والذكريات والدوافع والإحباطات والندم ؟ إنه يمكن أن يلاحظ بعض الآثار القليلة الباهتة ، وبعض الملاحظات المثيرة للانزعاج ، وغير الموثوق بها. فهناك سر داخلى غامض يقبع في أعماق النفس، مما يثير الخوف والرعب. فكلما نما الإنسان في تحليل نفسه، أدرك بصورة أكبر ما هو مفقود وغير معروف، وما سيظل كذلك دائمًا بالنسبة لاكتشافه لنفسه.

إنني أومن أن هذا هو أحد الأسباب الرئيسية للمعاناة التي تميز الإنسان اليوم ، والتي يشعرنا بها فلاسفة الوجودية . فهو يشعر دائماً أنه تقريباً، على خشبة المسرح، فهو يبذل جهداً كبيراً حتى يبدو بالمظهر الذي يريده ، فهو يريد أن يخفي شيئاً، ولكنه لا يعرف ماهية هذا الشيء. إنه مهما بدت حياته جميلة، فإنما هي مجرد لوحة قام

برسمها على باب خزانته السرية. وهذا هو ما وصفه بالتمام "السيد المسيح" عندما تكلم منذ وقت طويل مضى عن " القبور المبيضة " "مت ٢٣ : ٢٧". فماذا يوجد إذًا بهذه القبور، حيث المكبوتات الرديئة لطبيعتنا البشرية، وحيث يوجد كل ماضينا الخاص المتعفن. **إن الرقابة النفسية القوية تقوم بحراسة هذه الأسرار. ويشعر الإنسان أنه حتى وإن نجح في فتح ثغرة لاختراقها، فإنه يظل هناك سر الأسرار الذي يتعذر التصريح به أو التعبير عنه ، حتى نفسه.**

ثمة لحظات عابرة خلال الحوار الذي يتم أثناء العلاج النفسي، حيث يدرك كل من الطبيب والمريض - إلى حد ما - أنه لا يمكن سبر أغوار النفوس البشرية . فإنهم لا يمكن أن يعبروا عن ذلك بكلمات ، وإنما يمكن في الغالب التعبير عن ذلك بالدموع أو الصمت أو التصورات والتخيلات.

إن الصور الذهنية هي لغة الأحلام . وأحلامنا هي الشكل الذي يتستر اللاوعي خلفه، والذي عن طريقه يخاطب الوعي بالأسرار الخاصة بنا، والتي لم نكن نعرفها من قبل . وذلك هو سر الانفعال الذي نحس به عندما نسرد أحلامنا. وفي الحقيقة نحن نشعر بأننا بهذه الوسيلة إنما نكشف لشخص آخر جانبًا سريًا وهامًا في أنفسنا، جانب تظل معانيه غير واضحة لنا، وحتى إن كان لدينا هاجس ضعيف عنها . ثم إننا نشعر أيضا بالقلق والاضطراب عندما يسرد لنا شخص حلمًا. فكل حلم يكشف سرًا أكثر غنًى وغموضًا بالمقارنة بالأسرار التي يمكن التعبير عنها بكلمات.

الفصل الخامس

الزواج و الأسرار

الفصل الخامس

الزواج والأسرار

وعلى نفس المنوال، فإن الزوج وزوجته لهما خبرة لا تضاهى في المشاركة بإفصاح كل منهما للآخرعن أحلامه. ومرة أخرى سنجد في حالة الزواج كل ما درسناه من عناصر السرية. وأول كل شئ، علينا أن نتذكر أن الحياء أو الخجل يرتبطان بذلك الانسحاب والانعزال ، والسر، وهى الأمور التي تكلمنا عنها من قبل، والتي يجب بالضرورة أن تسبق تقديم النفس حتى تخلع عليها كل ما لها من قيمة.

وكذلك على الوالدين أن يحترما حياء أطفالهم، وهو يتنامى في نفوسهم. فإذا لم يحدث ذلك، فإنهم يحرجونهم، ومن ثم يعرضون مستقبلهم للخطر فيما يتعلق بحياتهم الجنسية. وهذا ما استخلصته من عدد لا يحصى من الاستشارات. فإن الشبان أو الشابات الصغار ممن ينقصهم الحياء، والذين يقدمون أجسادهم بسهولة للرذيلة، فإنهم لن يعرفوا التمتع في كامل أوجهه، بتقديم النفس في حياتهم

الجنسية. فالحياء غريزة طبيعية، تدفع بكل شخص لأن يحفظ نفسه حتى يقدمها بالكامل لشريك حياته الذي يختاره "شريكه المختار!".

نعم فكل ما سبق أن تحدثنا بشأنه عن اختيار صديق خاص يمكن أن تسر إليه الأسرار، يأخذ الآن بعدًا جديدًا وأهمية خاصة. **لأنه يمكنك أن تتخذ العديدين من الأصدقاء، بل من الممكن أن يكون لك أصدقاء مقربون جداً إلى قلبك، في نفس الوقت، أو على فترات متعاقبة. وتكون علاقتك بهم ناجحة، حيث يستشعر كل منهم أن علاقة الحب تؤلف بينهم رباطًا وثيقًا لا يمكن أن تفصم عراه. فرباط الجنس هو عطية للسر الأسمى، والمحبة الفائقة. وإنه لأسمى وأعظم سر أن يقدم الإنسان جسده. فإن الخطيب أو الخطيبة هو شريك فريد اختير في غير شك. وفيما يتعلق بالحب فهو مسجل في نفس الإنسان ناموس "الكل أو لا شيء". وتقديم الواحد لجسده، هو علامة على اتخاذ ذلك القرار، بتقديمه الكامل لنفسه، والذي يتضمن أيضًا التقديم المتبادل لأسرار كل منهما للآخر.**

ويعلن الخطيبان: إننا سنكون سعيدين، لأننا قررنا أن يشارك أحدنا الآخر دائمًا في ما لديه من أسرار. ولكنهما سيدركان في ما بعد أن هذا الأمر ليس سهلاً كما يظنان. ولكنهما يبدآن. إلا أنه بالإضافة إلى ذلك، فإن ثمة تزامناً ضرورياً وتوازياً لا غنى عنه بين ألفة الجسد والإفصاح عما يدور في العقل. فالجسد والنفس هما بمثابة قضيبا الشخصية .. فالقطار لا يمكنه السير بدون أن يتحرك على قضيبين، كما أن العجلات لا بد وأن تتحرك معًا للأمام على القضيبين.



وإنه لمن المؤسف أن يتقدما عبر المراحل المختلفة للتعبير الجسدي العاطفي بدون أن يفصح كل منهما للآخر عما في قلبه، كأن يتحدثا معاً في ود بالغ، دون أن يتبادلا القبلات أو العناق. فما أروع الارتباط بإتباع المنهجين معاً في تناسق ليزداد التعارف وعطاء الذات أحدهما للآخر.

وهذه هي معجزة الحب التي تعبر حواجز الأسرار، وكل ما احتفظ به كل منهما في سريرة نفسه. فعندما تحب وتشعر أنك محبوب، حينئذ يمكنك أن تعبر عن نفسك. فأنت هنا تكتشف نفسك وأنت تعبر عنها، في ذات الوقت الذي تكتشف فيه شريكك الآخر. والحقيقة إن هناك في بعض الأحيان اعترافات من الصعوبة الإفصاح عنها. ولكن ما يبدو مستحيلاً يصبح ممكنًا. فإن هذين الخطيبين يرويان قصة حياتهما أحدهما للآخر. كما يروى المريض حياته لطبيبه المعالج. وعلى أية حال فإن ثمة تبادلاً كاملاً مما يجعل الحب حقيقة روحية. فكل ما هو روحي لابد وأن يكون متبادلاً.

وهناك شعور بعدم الارتياح عندما يقدم أحدهما نفسه في سهولة، بينما الآخر- كما في مثل حالتي - يشعر بصعوبة ذلك عاطفياً، وبعدم قدرته على التعبير عن نفسه إلا إذا كان بصفة عامة ومجردة وفي صورة موضوعية لا شخصية. ولا تقتصر الأهمية على الأحداث البارزة، بل تشمل التفصيلات الصغيرة أيضا مهما بلغت من الصغر، والتي يُقدم أحدهما على الإفصاح عنها لأنه يشعر أن

الآخر شديد الرغبة في أن يسمع ويعرف ويفهم كل شيء. لأن هذه الأمور كانت موضع اهتمامه. وهذا مما يخلع على الاكتشاف المتبادل لكليهما أثناء فترة الخطوبة ، سمة الاستكشاف.

وكما في عيادة العلاج النفسي، لا تبدأ الاكتشافات الحقيقية إلا عندما يسود الاعتقاد بأنه لم يبق بعد ما يقال. فإنه من الضروري أن يفيق الإنسان من غفوته ويعود إلى وعيه ، حتى يمكنه إعادة اكتشاف بعض الذكريات التي يكون قد أغفل أهميتها، وفي خلال الحياة الزوجية لا بد أن تستمر هذه المعرفة المتنامية والمتوازية عن الشريك، وعن النفس، وسيتم هذا على مراحل من النجاح والإخفاق ومن الاستسلام في صعوبة، والانسحاب. الأمر الذي يحدث بالتناوب. وبانقضاء شهر العسل يدرك كل منهما أنه قد خلق لنفسه بعض الأوهام. وكل منهما قد رأى في شريكه النموذج الكامل. ففي بداية حبهما العارم رأى أحدهما الآخر كما تمنى، لا كما هو في الواقع. وقد خلع أحدهما على الآخر صفات لا توجد بالفعل. فكل منهما لم ير نقائص الآخر من أنها كانت واضحة ظاهرة مثيرة للاستياء ومتأصلة.

ويبدأ كل منهما في إصدار أحكامه على الآخر، ويحاول أن يحتفظ بها سرًا، حتى لا يجرحه. كذلك ثمة بعض الموضوعات التي تثير غضب الشريك الآخر من الأفضل ألا يتحدث بشأنها حتى لا تضطرب العلاقات الجيدة بين الزوجين. فالزوجة تتردد في أن تتحدث مع زوجها عن ذكريات سابقة خشية أن تؤكد الأحكام التي سبق أن

أبداها، أو التي سيبديها عن زوجته ووالديها، وخاصة وأن هناك ثمة خلافات بينه وبينهما. وحرصاً منهما على السلام ـ فإنهما دون أن يلحظا ذلك ـ يبدآن في علم الوفله بما سبقا وتعاهدا عليه بأن يخبر أحدهما الآخر دائمًا بكل شيء. وينسحب كلاهما إلى داخل نفسه، ويتحدث كل في أمور غير ذات أهمية، وغير شخصية. ويبدأ كل منهما في الإحساس بأنه غريب عن الآخر. وعمليات الانسحاب هذه تحدث في البيوت. وكما حدث مع فرانسيس ووالدتها .. يغضب كل منهما إذا سأله الآخر أسئلة يعتبرها تدخلاً في شئونه الخاصة : ما الذي جرى ؟ لماذا أصبحت تميل إلى السرية ؟ لماذا لم تعد تخبرني بأية أسرار الآن ؟ ألم تعد تحبني؟ أنني اشعر أنك تخفي عنى شيئاً ما ؟ بالتأكيد لا ... أؤكد لك ذلك. إنني لا أخفي عنك شيئاً، وهذا فقط من تصورك. ولكن الشعور بعدم الارتياح يتصاعد إلى الحد الذي ينذر بعاصفة. كما يشيع بينهما جو من الكرب والضيق بدون شك، ولكنه على أية حال أمر جدير بالاهتمام . إن الزيجات الناجحة ليست تلك التي بلا صراع أو مشاكل بين الأزواج بل التي تخدم خلافاتها هدفًا نافعًا، حيث يمكن في وقت غضب أن يتفوه أحدهما ـ على حين غرة ـ وفي قسوة، وبطريقة مبالغ فيها بحقائق كان يجب ذكرها منذ وقت طويل.

وقد يبدأ الزوجان في الحديث، أحدهما للآخر في بساطة متناهية مرة أخرى عندما يعودان إلى البيت بعد حضور ندوة، أو حفل موسيقى، أو بعد أن يذهبا لتناول الغداء معاً خارج البيت. وفي هذه

المرة ينكسر الحاجز، لا عن طريق انفجار أو شجار، وإنما عن طريق حديث رقيق. وقد تمتد المناقشة إلى وقت متأخر من الليل. ولديهما شعور غريب بأن كل شيء يبدأ من جديد، وأنهما استعادا فيما بينهما طريق المكاشفة بالأسرار، والتي كانا قد افتقداها. ويبدآن في تفسير سلوكهما. **فلكل أسراره التي يمكن أن يفشيها أو يعترف بها.** ويولد الأمل من جديد في أن الزواج لن يختنق مرة ثانية، وسيكون مغامرة رائعة للحياة معاً تتجدد بصورة لا نهائية. ويبدأ هذا الرجل وزوجته في فهم أحدهما للآخر. **ويكتشف كل منهما كم من أسرار هامة يخفيها كل منهما عن الآخر.** كما يدرك مقدار سوء الفهم **والانحياز الذي اتسم به نقله لشريكه.**

وبمجرد أن يبدأ أحدهما في الإفصاح للآخر عما في قلبه ، فإن بعض الأمور المتعلقة بإساءة الفهم لشخصه، وبالدوافع الغامضة في سلوكه ، تصبح واضحة. وأنه لابد من تصحيح الرأي الخاطيء الذي كونه عن الآخر.

أخبرتني إحدى السيدات أنها حين كانت في طريقها للزواج قدمت لها أمها تلك النصيحة : **"لا تخبري زوجك بكل شئ حتى تحتفظي بمكانتك عنده، وحبه لك. فعلى المرأة أن تحتفظ ببعض الغموض تجاه رجلها". يا للخطأ!** لقد فشلت في فهم معنى الزواج، كما فشلت في فهم معنى الحب. **والصراحة هي ناموس الزواج.** وعلى الزوجين أن يجاهدا معًا. وبلا كلل أو ملل، من أجل توافر الصراحة بينهما. وذلك بالاعترافات الجديدة دائماً، والتي قد تكون أحيانًا جد صعبة.

عليهما أن يجاهدا بغير كلل في سبيل **إعادة بناء المصارحة** بينهما، فكثيرًا ما تشوبها الشوائب دون أن يعرفا لذلك سببا. صحيح سيبقى غموض غير قليل، وسيلمسه أحدهما في الآخر. لأن معرفة شخص آخر كمعرفة النفس لن تكون كاملة أبدًا، إذ هي حركة دورية متكررة وتتم على فترات متباعدة، ذلك لأنه قد تم إهمالها.

ومن أهم ما يحمل الزوج على إسلءة فهم زوجته. افتراض أنه يعرفها حق المعرفة. وهكذا الحال أيضا بالنسبة للزوجة. فحين تظن أنها تعرفه فلن تسعى بعد إلى معرفته. ومن خلال تبادل الأسرار يمكن للرجل وزوجته أن يعيدا ترسيخ وحدتهما ونموها.

وفضلاً عن ذلك عليهما أن يتغلبا على الخوف من أنهما غير مفهومين. والخوف المفرط الذي يشل تفكير الإنسان تماماً، خشية اللوم والنقد، أو السخرية ـ التي قد يلقاها من الطرف الآخر نتيجة إساءة تقديره للأمور، وتجاهله لمشاعره تحت وطأة الريبة والشكوك.

إن **التقدم في الصراحة** لأمر بالغ الأهمية ولابد من استمراريته، لأنه يمهد دائماً للتغلب على ما يطرأ من معضلات أو مشاكل. وهو أمر يجدر بكل طرف أن يبذل كل جهده لتحقيقه. لا من أجل بناء سعادة الطرفين معاً فحسب، أو بغية توفير الجو الصحي العائلي للأطفال، وإنما لكي **ينمي كل طرف نفسه** ، بدلاً من العيش في رتابة، ولكي يثرى كل منهما حياة الآخر، ولكي يعرف كل منهما على الدوام شيئا جديداً عن شريكه .... نلاحظ في بعض الزيجات

ـ على سبيل المثال ـ أن **الزوج لا يعرف كيف يعبر لزوجته عن الحب، إلا عن طريق الرغبات الجسدية. في حين أن الزوجة ـ من الناحية العاطفية ـ تولع بالمشاركة الوجدانية ، لكنها تقبل الحب الجنسي متحفظة ودون أن تفصح عما تفضله هي شخصياً.** فالزواج الناجح والشخصية المفعمة بالحيوية، لا يمكن توافرهما إلا إذا راعى كل طرف أن يفسر سلوكه، ولا يستسلم لكل ما من شأنه أن يهدد حياته الزوجية، وألا يتخذ أي طرف قراراً مبنياً على إساءة الفهم. فالحياة نفسها كفاح دائم، ومعركة مستمرة ضد كل ما يهدد سعادة الإنسان، وهى معركة لايمكن حسمها دفعة واحدة، بل هي سلسلة من الانتصارات التي لا تتأتى إلا عن طريق الكفاح. وهذا يأخذ وقتا. وقليلون من الأزواج والزوجات هم الذين يعرفون كيف يؤدى كل منهما دوره في هذه المعركة من أجل سعادة الطرفين. وعوضاً عن ذلك تراهم يستغرقون في مشاكل ومشاغل الحياة وهمومها. دون أن يدركوا أنهم أهملوا ناحية هامة في معركة الحياة التي كان عليهما ألا يتهاونا فيها.

من الأزواج من يظنون أنهم صاروا واحداً. ذلك لأنهم يفعلون أشياء كثيرة معاً. فقد يذهب الزوجان معاً إلى الكنيسة أو المسرح، أو يخرجان للصيد. إلا أنه سيأتي اليوم الذي يدركان فيه مأساتهما. لقد ركضا جنباً إلى جنب، لكنهما في حقيقة الأمر متباعدان.

وحتى يكون الزوجان **"ليسا بعد اثنين بل واحداً"** فهذه ليست مسألة المشاركة في نفس الأحداث أو مسألة العلاقات الجنسية بينهما،



وإنما تعنى أن يسعى كل طرف لأن يتعمق في معرفة نفسيه الطرف الآخر، وألا يخفي أحدهما سراً عن الآخر. وهذا يعنى ألا يحتفظ طرف لنفسه ببستان خاص في حياته يسيج حوله بسياج، ويضع لافتة تقول بأن الطريق اتجاه واحد ... لا يوصل إلى الناحية الأخرى. فهذا مما لا شك فيه أمر خاطيء لا يصح وجوده. إذ لا يجب أن يحجب طرف عن الآخر إلا الأسرار التي ترتبط بالمهنة، أو أسرار الآخرين والتي يجب الحفاظ عليها بكل دقه . أي أنه ـ على سبيل المثال ـ لا يجب أن يحتفظ طرف لنفسه بسر يتعلق بالأمور المالية الخاصة بهما. ورغم ندرة هذه إلا أنها في غاية الأهمية، فالمال الذي ينفقه الإنسان يعد مؤشراً للقيمة التي يخلعها على كل شيء. فإذا ما راعى الزوجان أن يتفقا معًا، ويقررا كل ما يتعلق بأوجه الإنفاق المختلفة فهذا مما لا شك فيه يعزز روح الوحدة بينهما. وذلك يتطلب أن يأخذ كل طرف في الاعتبار ميول الطرف الآخر، ونظرته للحياة.

هناك كثيرون من الأزواج يحرصون على إخفاء حقيقة دخولهم عن زوجاتهم، كما أن هناك زوجات يعتبرن دخولهن أموالاً خاصة بهن، ولا شأن لأزواجهن بما يفعلن به. والزوج يخشى من أنه إذا أخبر زوجته بكل دخله ، فإن ذلك يحثها على أن تزيد مصروفاتها بينما لا ينقطع هو عن حثها على الاقتصاد. إلا أنه لا توجد زوجة مسرفة أكثر من تلك التي يطبق زوجها هذه الخطة. وذلك لأنها لا تشاركه المسئوليات التي تتعلق بشئونهما معاً. فبالنظر إلى أنه يخفي عنها حقيقة دخله، فمن ثم لا تستطيع أن تدرك أن المناقشة المستمرة

الصريحة بين الرجل وزوجته، أمر لابد منه لإزاحة العراقيل التي تعترض طريق وفاقهما.

أما الزوجة التي يلومها زوجها دائماً لأنها كثيرة الانفاق، والتي يخبرها زوجها بأنه سوف يفلس إذا ما استمرت على هذا النحو، في حين أنها تدرك أن زوجها قد ينفق ـ على حين غرة ـ إن شاء هو ذلك مبالغ كبيرة. فيكون كلام زوجها غير مقنع لها. هذا مما يعني أنه يحتفظ سراً ببعض الأموال يصرف منها وقتما يشاء. وإنه لمن الشائع أن يخفي كل منهما عن الآخر جانباً من إنفاقه حتى لا يزيد الآخر من إنفاقه. فقد يخفي الزوج عن زوجته ـ مثلا ـ ما ينفقه في رحلات الصيد، في حين تخفي الزوجة عن زوجها ما تنفقه في صالون التجميل. ولكنها تفعل ذلك حقيقة من أجله، وهى مخلصة في اعتقادها هذا، لأنها تذهب عادة لصالون التجميل لتبدو جميلة في نظره. وربما وبدون أن تدرك أنها تذهب لمصفف الشعر الذي يمكنها أن تخبره أيضاً بأسرارها. فثمة مصففو شعر يشعرون. أن عليهم القيام بدور الطبيب النفساني بالنسبة لعملائهم. وهناك آخرون ممن يذيعون كل ما يعرفونه من أسرار.

وهناك من الأزواج من يحكون لزوجاتهم عن كل كبيرة وصغيرة في حياتهم. لقد ذهبت إلى طبيب الأسنان، وحضرت اجتماعاً هاماً مع رؤسائي في العمل. يعرف زوجته أنه كان مشغولاً جداً. لكنه لا يذكر لها أنه كانت هناك فترة راحة جلس خلالها حول فنجان شاي

يتجاذب أطراف الحديث مع أحد أصدقائه القدامى الذين لا تتقبلهم زوجته.

وربما أخفي عنها ذلك لأن زوجته لا تحب ولا ترحب بقيام علاقة صداقة بينه وبين هذا الصديق.. الذي طلق زوجته وانغمس في حياة اللهو والمجون، فضلًا عن أنه متحدث لبق... تدعى أن له تأثيراً سيئاً على زوجها. لأنه يسيء معاملتها بعد كل مرة يتقابل فيها معه.

كما أن هناك العديد من الأسرار ـ مثلا ـ كتلك المراسلات التي يحتفظ بها زوجها سرًا في مكتبه. وفي مرات أخرى يحدث العكس، إذ يفتعل الزوج سقوط خطاب مشبوه من جيبه، وذلك لأنه لا يستطيع أن يحتفظ بالسر أكثر من هذا. ولكنه لا يمتلك الشجاعة على الاعتراف به صراحة. إنه من الصعب دائمًا **الوفاء بالوعد** بأن يخبر أحدهما الآخر بكل شئ ، سواء كان الأمر متعلقا بكيفية قضاء وقته ، أو بما أنفق من نقود أو من ناحية الوفاء للعلاقة الزوجية. وهناك أمور أخرى أقل خطورة.. لكنها ليست أقل أهمية مثل **رد الفعل العاطفي**، وما يبدو من مخاوف سخيفة هي بالأحرى شكاوى تافهة ... شك سخيف.. نزوة عابرة، وأمل ربما لا يتحقق أبدًا.. ظنون ظالمة.. قليل من الكذب الأبيض.. خبرات روحية غريبة ومشوشة... هواجس داخلية مفزعة... تكاسل .. إفراط في اللامبالاة أو القلق الشديد.

علاوة على ذلك فإن ما سبق وتحدثنا عنه فيما يتعلق بالانسجام التام، والوقت المناسب أمر ضروى جداً ـ حتى بين الرجل وزوجته

وإذا ما سألني رجل متزوج عما إذا كان يجب أن يفصح لزوجته عن سر معين فالجواب : إنه من المستحيل لي أن أعرف إذا كانت في ظروف مناسبة لكي تسمع تلك الأسرار أم لا.

ولقد رأينا أن الإفصاح عن كل شئ أمر صعب وحساس. ويجب على أحد الشريكين أن يساعد الآخر على أن يفصح بما عنده. إن شيئا لا يعين الزوج في مثل هذا الأمر ـ إلا حصافته وحكمته الشديدة في تقدير ظروف زوجته، والعكس بالعكس. كل في حاجه للشعور **بالاحترام والحرية**.. لا أن يشعر بأن أحداً يتجسس على أسراره أو يراقبه. فحب الاستطلاع ونقص اللباقة يقفان في سبيل إفصاح أحدهما للآخر بأسراره. فإذا كان أحدهما يتكلم، **فإنه من الأهمية بمكان أن لا يقاطعه الآخر**، سواء بحماسة الموافقة، أو بتعليقات في غير وقتها المناسب، أو بتقديم نصيحة في غير أوانها. ولقد رأيت أزواجاً يلتزمون الصمت نتيجة للعبارات الهجومية، أو المقاطعة دون داعٍ. وبسرعة ينسحبون إلى أبراجهم العاجية، ومن ذلك الوقت لا ينبسون ببنت شفة. إلا أنه قد يكون للزوج وزوجته أسراراً مشتركة، يجب أن يحتفظا بها في جدية. **فالزوج الذي يخبر والدته بكل شئ تفعله زوجته ، والزوجة التي تخبر أصدقاءها ـ في طياشة وتهور ـ بكل ما يفعله زوجها أو يتصل بحياتها الزوجية، إنما يدمران حياتهما الزوجية، وعندما يحدث هذا فمعناه أنهما لا يقدران أن يقيدا نفسيهما حتى بالقدر القليل فيما يتعلق بمشاكلهما الخاصة.**

فأن تحترمٍ شريك حياتك يعنى أنك تحترم زيجتك، بل و تحترم نفسك أيضاً. أنا لم أعط لنفسي قط الحق في قراءة أية خطابات ترد

لزوجتي أو حتى بطاقة بريدية تكون قد تركتها سهواً على المكتب ما لم تطلب هي مني أن أفعل ذلك. بل أكثر من هذا، فإنني جد سعيد لأنني عندما أريد أن أختلي بنفسي، أو أن انفرد بعملي، فإنها بحصافتها تترك لي المكان. ثم إنني سعيد بها أيضاً لأنها لا تعلق على الفوضى السائدة هناك وهو لي كالترياق في مواجهة الضغوط الهائلة التي نواجهها في حياتنا.

وهكذا الحال أيضًا هنا في الفندق، حيث نقضي إجازتنا. فقد انتحيت بنفسي في حجرة منعزلة لكتابة هذا الكتاب. وقد حرصت زوجتي أيضاً على ألا تزعجني، بل تتركني هناك في هدوء لأنجز مهمتي، لأنها تعرف أن وجودها، حتى بدون كلام، سوف يشوش أفكاري. بينما يمكن لغرباء أن يلعبوا الطاولة بجواري دون أن يزعجوني.

ولكن كم زوجة يمكنها أن تفهم مثل هذه الأمور؟ وكم من الزوجات دفعن أزواجهن إلى أن يهجروهن ويهدمن العلاقات الزوجية الوثيقة نتيجة إصرارهن. إن الشريكين اللذين يعتقدان أنهما في انسجام تام بحيث لا يستطيع أن يترك أحدهما الآخر، وأنهما لا يختلفان إطلاقاً في الرأي إنما هما أكثر تفرقاً مما يتصوران، ولنفس هذا السبب ليسا حرين. ولابد أن تكون حراً لتكون واحداً مع شريك حياتك. فتواجد هذين الزوجين معا، وعلى هذا النحو، وبصفة دائمة، إنما هو تعويض عن حاجتهما إلى الاستقلالية. وهى رغبة كبتت في اللاوعي.

إنه لوضع في غاية الحساسية. فإذا استعملت صيغة الأمر كي أمنع زوجتي من التدخل في شئوني الخاصة فإنني أفسد صيغة ما بيننا من علاقة جيدة . ولكنها لو كفت في لطف عن كل ما يمكن أن يعد بالنسبة لي تطفلاً، فإنها على العكس من ذلك، تعمق ما بيننا من انسجام بهذه اللفتة البسيطة الرقيقة. فمعظم الرجال حساسون، وبدرجة أكبر مما تظنه زوجاتهم، وإن لم يظهروا ذلك . وللأسف فإن الزوجات ممن تعوزهن اللباقة بالنسبة لهذا الأمر، هن اللواتي يضطر أزواجهن أن يطلبوا منهن ألا يتدخلن فيما لا يعنيهن. حتى إن الزوجات المولعات بمعرفة الأسرار، يكن أقلهن في الحصول عليها.

كذلك فإن الأزواج الذين تربطهم علاقة وثيقة للغاية هم الذين يستطيعون المحافظة دائما على هذه العلاقة الطيبة . بينما الزوجان اللذان يتباعد أحدهما عن الآخر، يزيدون من عمق الهوة التي تفصل بينهما. ما لم .. ما لم يحدث شيء يعيد المياه إلى مجاريها، سواء كان ذلك تغييرًا في السلوك أو نوعًا من التساهل حفاظاً على الرابطة الزوجية.

بعد قليل، وبعد الانتهاء من كتابة هذه الصفحة سأقابل زوجتي لنخرج معًا في نزهة في "مالاجا" حيث الشمس المشرقة والظلال الوارفة . أو الصعود إلى قلعتها حيث الطريق الملتوية ذات المنظر الرائع وقت الغروب. إننا لا نتكلم كثيراً لأننا بالطبيعة نميل إلى الصمت والهدوء. إن حياتنا لممتعة جداً حيث أننا لا نحب الثرثرة التي لا طائل من ورائها. إلا أننا، على أية حال نستمتع بكل شيء

من حولنا . تلك المناظر الخلابة التي نمر بها. حتى ذلك الطفل وما يسببه من إزعاج، وتلك الهرة الصغيرة التي ترقد في هدوء وبلا مبالاة، في هذه الكافيتريا التي تقدم أفضل قهوة. إن مجرد كلمة واحدة طيبة يمكن أن تخلق إحساساً بعلاقة وطيدة. إننا بالطبيعة نميل إلى الصمت وبخاصة أنا ، ذلك إلى الحد الذي كنت أخشى معه أن يؤدي صمتي إلى الإساءة إلى الآخرين. فقد كنت ـ على سبيل المثـال ـ أسأل نفسي أثناء الحرب وإبان صمتي، ما الذي يفكر فيه زملائي ؟ وكنت أتعجب كيف يجد الضباط كل هذا الكلام الذي يتبادلونه على مائدة الطعام. ومن الطبيعي أن تكون لهم موضوعاتهم المفضلة والتي يكررون الحديث عنها كل يوم . وعلى سبيل المثال، الحديث بشأن مزايا نبيذ من نوع معين. إلا أنني أشعر أنني غير كفء تماماً للدخول في مثل تلك المناقشات. فلا أعرف ماذا يمكنني أن أقول . رغم أنني أحب جداً زملائي بالجيش. لذلك انتهزت الفرصة يوماً عندما كنا، قائدي وأنا ، في انتظار القطار بالمحطة،لأسأله في هذا الأمر. لقد ترددت لوقت طويل، ولكني فجأة، واجهت الأمر بشجاعة، فقلت : لابد أنك لاحظت أنني أبالغ في صمتي ، فهل يضايقك هذا ؟ وبعد برهة من الصمت رد قائلاً: كلا على الإطلاق، يوجد صمت سلبي يرجع إلى قلة الحيلة، ولكن بالنسبة لك فهو دليل التواجد والحضور. لقد كان في رده هذا ما أعاد إلى شعوري بالثقة والطمأنينة.

توجد طريق رائعة جداً يمكن للزوجين عن طريقها أن يكتشف أحدهما الآخر بدون قيود. ذلك بأن **يتحدثا معاً في محضر الله ويتبادلا**

الأفكار التي تمر بهما خلال تأملاتهما. وفي سبيل هذه الحالة، فإن مطلب الصراحة الكاملة لا يأتي من الشريك وأسئلته، وإنما يتأتى من أمانتنا وإخلاصنا للرب ولأنفسنا. ونتيجة لهذا الصمت لابد وأن تجيش بداخلنا ذكريات وانطباعات، ومشاعر بعضها ندم وبعضها قناعات. كنا نفضل لو أنها ظلت خامدة حتى نتجنب التأمل فيها، وتقييمها بوضوح. إلا أن التأمل في حد ذاته أمر طيب بالنسبة لهذه الأمور، وبخاصة لتوافر الاحترام المتبادل الذي يفرضه وجودنا معاً في محضر الله. ثم أنك حين تدون أفكارك باختصار على الورق، يصبح من السهل عليك أن تتحدث عنها بصدق وصراحة. ولهذا السبب فإني رأيت كثيرين من الأزواج والزوجات قد توقفوا عن ممارسة التأمل بعد فترة وجيزة . لأنهم لم يعودوا بعد مؤهلين لأن يؤدوا أدوارهم بدقة وأمانة. وأن يصارح أحدهما الآخر بغض النظر عن الأفكار التي توصل إليها كل منهما خلال تأملهما ، **وفي شركتهما مع الله، ففي حضرة الله لا تكون أسرار . والزوجان يتأملان معًا في محضر الله، يتأكد لهما تماماً أنهما يعرفان أدق الأفكار والمشاعر الحميمة التي يكنها أحدهما للآخر.**



الفصل السادس

أسرار الله

الفصل السادس

أسرار الله

المرحلة الثالثة في تكوين الشخصية المستقلة

حقا إنه لا يوجد سر خفي أمام الله . ولهذه الحقيقة معنى ومغزى هام. إن الطرق الفعالة والقوية التي بها نعرف أنفسنا. إنما تأتي بأن نسمح لأنفسنا أن يختبرنا الله، وأن ننصت لما يقوله لنا . فالله يعرفنا أكثر من أنفسنا. فهو يعرف كل أسرارنا . ولا شئ غير معروف لديه. لقد قال الرب يسوع : "أما أنتم فحتى شعور رؤوسكم جميعها محصاة" (متى ١٠:٣٠).

أما داود فقد صرخ قائلاً : يارب قد اختبرتني وعرفتني!

أين أذهب من روحك؟

ومن وجهك أين أهرب؟

إن صعدت إلى السموات فأنت هناك!

وإن فرشت في الهاوية فها أنت!

فقلت إنما الظلمة تغشاني

فالليل يضئ حولي..

الظلمة أيضاً لا تظلم لديك

والليل مثل النهار يضيء

كالظلمة هكذا النور

(مزمور ١٣٩ : ١و٧ و٨ و١١و١٢)

وهذا ما يقلق كثيرين . كتبت لي سيلة تقية تقول : إن ما يزعجني أن له دائمًا الكلمة الأخيرة!

الله يعرف كل أسرارنا إلا أنه يود أن نخبره نحن بها. وهو يعرف كل احتياجاتنا، ورغباتنا، ومخاوفنا، وآمالنا، إلا أنه يريدنا أن نخبره بها في الصلاة. وقد ظلت هذه المفارقة أمرًا عسرًا على فهمي لمدة طويلة. لماذا نصلي إذًا، والله يعرف كل شيء ؟ فعندما نتكلم مع شخص ما فإننا نخبره بما لا يعرف. إلا أن كل شيء نقوله لله هو يعرفه قبلاً.

لأنه ليس كلمة في لساني إلا

وأنت يارب عرفتها كلها.

هكذا قال المرنم في مزمور (١٣٩ : ٤). فعندما نأتي إلى الله بأسرارنا فإننا حينئذ لا نقدمها له لكي يعرفها، فلماذا نقدمها إذاً؟ حسناً، **ذلك لأن الله يحترم ذواتنا. إنه ينتظرنا لكي نخبره بأسرارنا بأنفسنا، في حرية**، كما أخبرت الطفلة فرانسيس صديقتها الصغيرة، وكما يخبر المريض طبيبه، وكما يخبر الزوج زوجته.

إنه ينتظر أن نظهر بذلك حبنا وثقتنا فيه، وينتظر ذلك بصبر ليس له حدود. إنه ينتظر أن نختاره كصديق وفي ، نأتمنه على أسرارنا، حتى وإن كان يعرف كل شيء عنا. فليس المهم أن يعرف أسرارنا،

لأنه يعلم كل شئ وإنما المهم أن نخبره نحن بها، حتى تظهر إرادتنا لأن نكون معروفين عنده. فضلاً عن أن اعترافنا بالخطية لا يحررنا تمامًا منها، ما لم يكن اعترافنا بها لله الذي نحن مسئولون أمامه.

لما سكت بليت عظامي
من زفيري اليوم كله
أعترف لك بخطيتي ولا أكتم إثمي
قلت أعترف للرب بذنبي
وأنت رفعت آثام خطيتي (مزمور ٣٢ : ٣ و٥)

قد يقول قائل: يبدو لي أن الله يحترم أسرارنا. إنه يتقبل حقيقة أننا نرفض أن نتكلم، وهو ينتظرنا لسنوات عديدة، ولا يجبرنا على الكلام . وهنا نجد مرة أخرى أول ما تتميز به الشخصية المستقلة من ناحية الانسحاب، والحق في الاحتفاظ بالأسرار.

وهذا ما يجب أن يسبق الاعتراف بالسر حتى اذا ما تم الاعتراف بالسر كان ذلك نتيجة فعل حر. حقًا إننا نجد مرة أخرى في علاقتنا بالله ذلك التعاقب من الرفض ثم التسليم ، الأمر الذي يدل على تكون الشخصية المستقلة. **فالله يريدنا أن نكون أشخاصاً مستقلين.** لذلك فإنه يحترم رفضنا وعصياننا. واحتفاظنا بأسرارنا لأنفسنا. كما يحترم عدم طاعتنا التي هي مؤشر ثقتنا فيه عندما نعود إليه، وحين نعترف له بأسرارنا في عبادتنا، **ومن لم يشك أبدا ، لا يكون أيضاً قد وجد إيماناً حقيقيًا . ومن لم يقل "لا" لله أبدًا، لا يستطيع أن يقول له"نعم" في ثقة وصدق .**

بالإضافة إلى ما سبق فإننا نجد أيضاً في علاقتنا مع الله عملية التبادل التي تميز كل شيء روحي. **فالله ينتظر منا أن نختاره كمؤتمن على أسرارنا. لأنه اختار الإنسان أولاً ليكون محل ثقته . فلقد أخبر الله الإنسان أولا بأسراره** .. تكلم معه، ومازال يتكلم معه كل يوم. وعلى هذا فهو يكشف عن اهتمامه، واعتباره للإنسان كشريك مستقل، وموضع ثقته. والإنسان حر في أن ينصت أو لا ينصت، حر في أن يستجيب أو لا يستجيب . **فالله يتكلم، والله يقترب من الإنسان، ويتكلم إليه في ود وألفة.** إنها لحقيقة مدهشة، وهي جوهر رسالة الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. فعندما جاء الله بنفسه، وأعلن ذاته في يسوع المسيح، قبل الله أيضًا تردد الإنسان بين حالتين : الأولى تتسم بسوء الفهم والصراعات والإدبار، والثانية تسودها اللقاءات الغنية الخصبة، وخبرات المشاركة القوية، حيث **يحترم الله حق الإنسان في أن يرفضه مثلما حدث في الصليب**، حيث شعر المسيح نفسه وهو على الصليب أن الله قد تركه حيث ظلمة الجمعة العظيمة، وسر القبر قد سبق مجد القيامة وأعطيله كل مجده وإشراقه. وفضلاً عن ذلك فإن تلك الحقيقة تملأ الصفحات الأولى من الكتاب المقدس،ثم تتكرر ثانية في تاريخ الشعب المختار، ثم في الأنبياء. وكلها تعلن أن الله يتكلم مع الإنسان، ويعلن له ذاته. **فالإعلان الإلهي هو إفشاء أسرار الله عن طريق الله نفسه. وما كنا لنعرف شيئاً عن شخصه، ورحمته، وقوته، وعمله، وخطته.. لو لم يخبرنا هو بنفسه. والذي يميزه عن إله الفلاسفة المتبلد الشعور، هو أن الله لم يكن أبداً وحيداً. فاختار شريكا لنفسه، على صورته، يمكن**



أن يدخل معه في حوار وحديث. ونلاحظ أن الله كان دائما هو البادىء بالكلام . وكل شيء بدأ بكلمة الله. أما كلمة الإنسان فلم تكن في أي وقت إلا استجابة لكلمة الله.

إلا أن الله لم يتكلم للإنسان بصفة عامة، أو للأنبياء الكبار فحسب، ولكنه يتكلم مع كل واحد منا. إنه مهتم شخصياً بكل واحد منا. يتكلم معه شخصيًا ويستمع إليه شخصيًا. وهذا ما يكمل عملية بناء شخصيتنا. الشخصية بكل ما تحمله الكلمة من معان حيث يكون الإنسان في علاقة شخصية، لا مع الآخرين فحسب، وإنما مع الله أيضاً.

وهذه هي المرحلة الثالثة في تكوين شخصية الإنسان. فالإنسان يظل طفلاً إلى حد ما بلا وعي، غير قادر على تحمل المسئولية، وهو يعمل بصورة آلية من خلال غرائزه وانفعالاته اللاإرادية طالما أنه لم يتقابل شخصياً مع الله. وطالما أنه لم يقبل الدخول في الحوار الصعب مع الله.

وقد كانت *المرحلة الأولى* في تكوين الشخصية هي الانسحاب، ثم أصبحت شخصية مستقلة من خلال خلق الأسرار الشخصية. أما *المرحلة الثانية* فقد تمثلت في الإفصاح الحر عن هذه الأسرار لشخص آخر يختار وبحرية. ومن خلال خبرة الحب والعلاقة الشخصية المتبادلة مع آخر. *والمرحلة الثالثة* هي أن تكون لنا هذه الخبرة الثنائية في علاقتنا مع الله، حيث نشعر أننا مستقلون ومتميزون عنه. وأن نختاره أيضا بحرية، وأن نخبره بأسرارنا. ومن ثم تتكون علاقتنا الشخصية معه، ونختبر محبته. وهذا ما يماثل المغزى الهام لمثل الابن الضال في

طول غيابه، وفي عودته إلى حضن أبيه لدرجة أن يشعر الابن الأكبر بالغيرة وهو الذي لم يترك بيت أبيه أبدًا (لوقا ١٥ : ١١ ـ ٣٢) .

على أية حال، فالدخول في حديث مع الله ليس بالأمر الهين. ولا يقل أهمية عن تجربة العلاج النفسي، أو تجربة الزواج. فهناك ثمة توازٍ واضح بين التجارب الثلاث. لكن التجربتين الأخيرتين ما هما إلا صورة باهتة مسبقة للتجربة الوحيدة الحاسمة المتمثلة في لقاء ليس مع طبيب، أو مع شريك الحياة في الزواج، بل مع الله ذاته.

وعلاوة على أنه ثمة تشابه في المواقف الثلاثة. فإننا نجد دائماً هذا التعاقب من الانسحاب والاستسلام، الرفض ثم تقديم النفس، الأسرار ثم الاعتراف.

لقد قابلت العديدين من المؤمنين الذين وجدوا صعوبة في قبول عدم التواصل والتقطع في الحياة الروحية أو قبول حقيقة أن التحولات السيئة، أوقات الشر والوحدة القاتلة، أي الأمور التي تتطلب السرية يمكن أن تأتي عقب نجاح كبير. فهم قد يتقبلون ذلك في علاقاتهم مع الناس لأن الناس ليسوا كاملين، حيث يمكن أن نرد ذلك الخطأ إليهم إذا ما وجدنا صعوبة في علاقتنا بهم. أما مع الله الذي هو الكمال نفسه، **كيف يمكن لنا أن نفسر تلك الصعوبات التي نجدها في علاقتنا معه؟** الله هو الله الذى يتكلم، ولكنه هو أيضاً الله الذى يصمت. هو الله الذى يعلن نفسه لنا، ولكنه أيضاً هو الله الذي يخفي ذاته عنا. وقد أعلن ذلك القديس بولس لأهل أثينا وسط أريوس باغوس حين قل : **" لكي يطلبوا الله لعلهم يتلمسونه فيجدوه"**



(أعمال ١٧:٢٧). يتلمسونه ! هذا التعبير يوضح تماماً ذلك الخلط بين النور والظلمة، والإعلان الإلهي والصمت، واليقين والشك، الأمر الذي يدل دائماً على تقدمنا في علاقتنا مع الله . إن الله ليس إلهًا ميتًا، لا يفعل شيئًا في راحته، إنه الإله الحي، وهو موجود في كل إيقاعات الحياة ونبضها.

وبسبب هذه الصعوبة بالتحديد، تنمو علاقتنا الوثيقة بالله بلا توقف.إن نجاح العلاج النفسي، أو نجاح وحدة الزوجين في رابطة الزواج لا يتحقق دائما دفعة واحدة ونهائية. بل يتجدد ويتعمق من خلال الكثير من العواصف. وإذا أمكننا أن ننتزع من الله كل أسراره بسهولة، فإنها لن تُعَدْ بعد بالأسرار الثمينة. فمعرفة الله لا تكتمل دفعة واحدة، لكنها حالة مستمرة وصعبة من الاكتشاف. إن لله خطته تجاهنا، لكل واحد منا في كل لحظة. فما هي هذه الخطة ؟ هذا هو سره.

إننا نحاول جاهدين استجلاء هذا السر. ونحن نتلمسه فعلًا. فكثيرًا ما ينبلج النور من أخطائنا. وقد ندرك أحياناً، ولو بصعوبة بعض مقاصد الرب، نسمع صوته، ثم نعود نتشكك مرة أخرى فيغمرنا الارتباك والاضطراب. وهذا يتطلب الكثير من السرية. نقرأ في (متى ٦:٦) قول يسوع : "وأما أنت فمتى صليت فادخل مخدعك وأغلق بابك، وصلِّ إلى أبيك الذي يرى في الخفاء (أي سرًا) . فالتأمل هو انتظار أسرار الله في سرية ومثابرة على أمل أن يهمس بها لنا في خفايا قلوبنا. إن كل الأديان لها المفهوم المقدس لأسرار الله، وهي

قاصرة على فئة قليلة. إنهم كبار المتصوفين وهم الذين يدخلون بصورة أكثر عمقاً إلى أسرار الله، ويتكلمون عنها بحذر شديد وتحفظ كبير وبشيء من الصعوبة. إن أعظم الأسرار لا يمكن التعبير عنها. إلا أنه في مقابلتنا مع الله قد يتولد لدينا أحيانًا الانطباع بأننا كشفنا سر الحياة. إلا أننا نشعر أيضًا أنه يتعذر علينا الإفصاح عنه للآخرين. فهو سر بين الله وبيننا، يجب احترامه وتبجيله. إلا أنه على حين غرة، وبعد خبرات جد رائعة، نشعر بعد كل هذا إننا مازلنا قاصرين في معرفتنا لله. فهذا هو السر النهائي لكل إنسان، وهو ما لم نستطع أبدًا أن نكتشفه مع أي أحد . والذي يغيب عنا دائما نجده ثانية - وبمقياس مختلف - في اقترابنا إلى الله، وذلك في المسافة التي يتعذر قياسها والتي تظل دائما بين المخلوق والخالق. إننا لن ندرك أبدًا أي شيء إلا ومضات قليلة، وأفكارًا قليلة، تصدر عنه. وقد كانت خبرة موسى الذي ناضل وعاش بالقرب من الله. فعندما سأل موسى الرب أن يسمح له أن يرى مجده، أجابه قائلًا : "هوذا عندي مكان. فتقف على الصخرة. ويكون متى اجتاز مجدي أني أضعك في نقرة من الصخرة وأسترك بيدي حتى أجتاز (السر!) ثم أرفع يدي فتنظر ورائي وأما وجهي فلا يُرى" (خروج ٣٣ : ٢١ - ٢٣).

وكتب القديس بولس في العهد الجديد :

"فإننا ننظر الآن في مرآة في لغز لكن حينئذ وجهًا لوجه". "متى جاء الكامل "(١كو ١٣: ١٠و١٢) .

وبعد اختبار الموت، في وقت مجيء السيد، حينئذ

لن يعد هناك أي سر.



صديقي القارىء

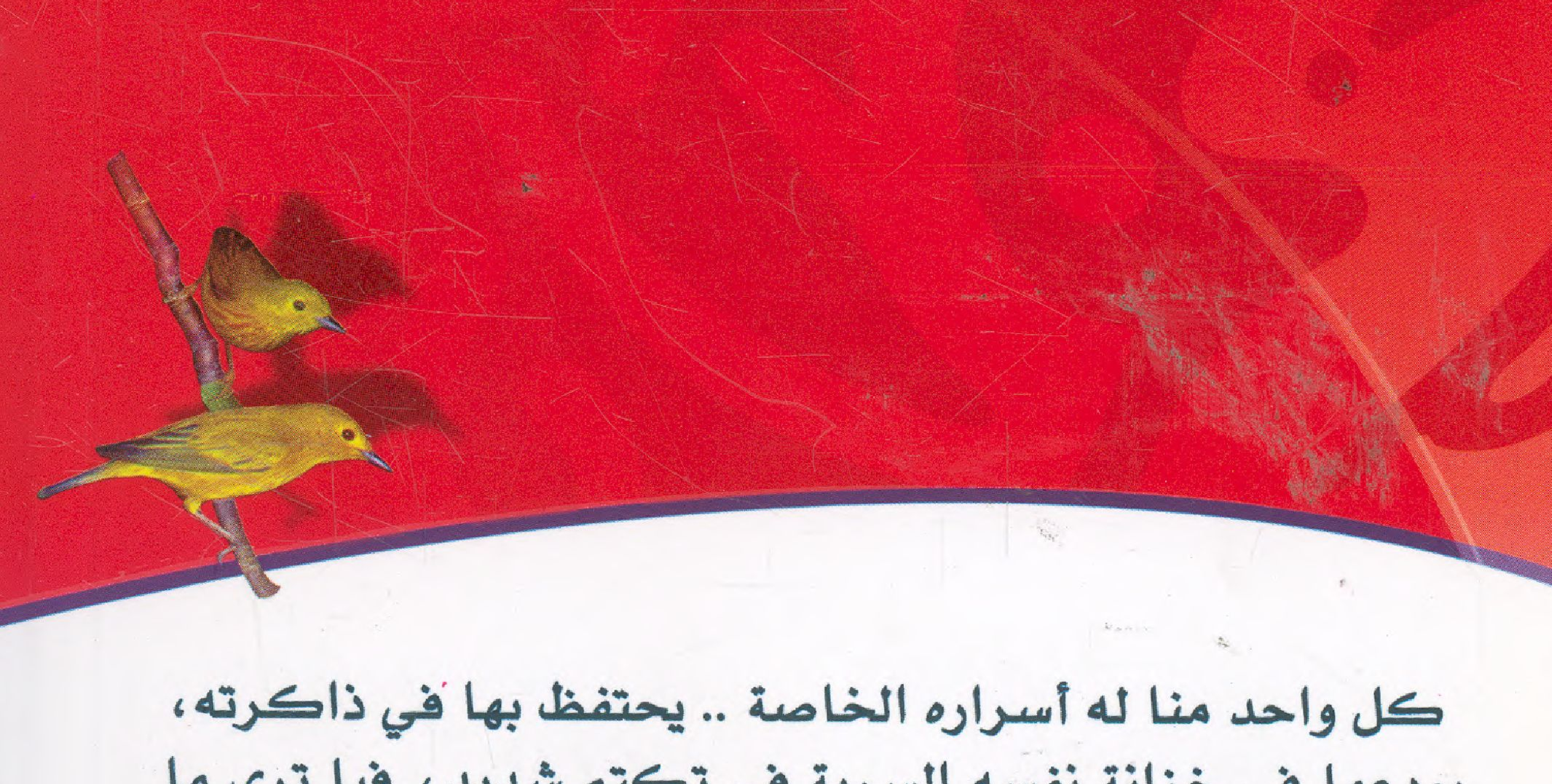
يهدف مركز بيت الحياة إلى تقديم كل ما يبني الإنسان و يدعمه و يساهم في تطوير حياته و تقدمه. بدءًا من اكتشاف نفسه و قدراته، وصولاً إلى النضج و النجاح في رحلة الحياة. و ذلك من خلال ما نقدمه من كتب عامة و مواد للتعليم و التدريب

و في سبيل ذلك لايدخر المركز و كل العاملين فيه أي جهد من أجل تحقيق هذد الأهداف من أجل الإنسان .. و لذلك فالمركز يخاطب جمهوره من القراء أن يتواصلوا معه في ابداء آرائهم في مطبوعاتنا، وكذلك أن يتفاعلوا معنا بارسال إحتياجاتهم من موضوعات يدركون أهميتها لحياتهم ..

و نحن نعد القارىء العزيز بدراسة كل الأقتراحات و الآراء و الأفكار التى ترد الينا من أجل تقديم كل نافع و جديد.

فننتظر من القارىء الجاد ان يتراسل معنا عبر الانترنت على هذا البريد الالكتروني: **houselifebooks@gmail.com**

لأن رأيك يهمنا



كل واحد منا له أسراره الخاصة .. يحتفظ بها في ذاكرته، يودعها في خزانة نفسه السرية في تكتم شديد، فيا ترى ما هو مفتاح هذه الخزانة ؟!

ثمة وقت نحتفظ فيه بأسرارنا ، ولكن يأتي وقت آخر قد نشارك آخرين بما لدينا من أسرار .. فهل يا ترى ثمة علاقة بين النضج و الاحتفاظ بالسر و مشاركة آخرين به ؟!

وما علاقة الحب بالأسرار ؟!

وهل ثمة أسرار يمكن أن يخفيها المحب ولا يخبر بها م

لماذا نُسِر لله بأسرارنا مادام الله يعرفها ؟

هذا الكتاب لعالم النفس السويسري القدير بول تورنييه يكشف غموض هذا العالم المثير .. أسرارك !



الناشر

مركز بيت الحياة
House of Life Center

